تراثنا

نشرة فصلية تصدرها

مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث

العدد الرابع (١٣) - السنة الثالثة - شوال ١٤٠٨ هـ

تراثنا

نشرة فصلية تصدرها مؤسسة آل البيت ـ عليهم السلام ـ لإحياء التراث

■ الإسهام في النشرة باب مفتوح لجميع العلماء والمحقّقين والمهتمّين بشؤون تراث أهل البيت عليهم السلام.

■ الآراء المنشورة لا تعبّر عن رأي النشرة بالضرورة.

■ ترتيب المواضيع يخضع لاعتبارات فنّية، وليس لأيّ اعتبار آخر.

■ النشرة غير ملزمة بنشر كل ما يصل إليها.

المراسلات :

تعنون باسم: **هيئة التحرير**

بيروت ـ بئرالعبد ـ مقابل البنك اللبناني / الفرنسي

ص. ب. ٢٤/٣٤ ـ تلكس ٤٠٥١٢ ـ ت: ٨٢٠٨٤٣

تراثنا

العدد الرابع [١٣] / السنة الثالثة/ شوّال ـ ذوالقعدة ـ ذوالحجّة ١٤٠٨ هـ . ق.

الإعداد والنشر: مؤسسة آل البيت ـ عليهم السلام ـ لإحياء التراث.

الكمّية: ١٠٠٠ نسخة.

قيمة الإشتراك السنوي في نشرة تراثنا ١٥ دولاراً داخل لبنان ، و٢٥ دولاراً في البلاد العربية وأوروبا وآسيا وأفريقيا والأمريكيتين واستراليا . بضمنها أجور البريد المضمون .

أبو الأسود الدؤلي

ودوره في وضع النحو العربي

السيد هاشم الهاشمي

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه دراسة عن أبي الأسود الدؤلي، بحثت فيها عن صلته بوضع النحو العربي، وقد اخترت هذا الموضوع لأهمّيته، ولما يدور حوله من شبهات واعتراضات وأنا أشعر بأنّها تحتاج إلى إضافات أُخرى، لعلّ الفرصة تسمح لها، ولكن رأيت من الجدير نشر ما كتبته في هذا المجال ، لعلّه يلقي بعض الضوء، على معالم هذه الشخصية، و على هذه القضية الهامة، قضية (وضع النحو العربي).

ورأيت أن أبدأ في نشر ما كتبته حول وضع النحو العربي، لأهمّيته، وبعد ذلك سوف أنشر ترجمة أبي الأسود وتاريخ حياته ومعالم شخصيّته.

فنبحث هنا حول مدى صلة أبي الأسود الدؤلي بوضع النحو العربي، ومدى صحّة الرأي القائل بأنّه واضع النحو العربي، بتوجيه من الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -عليه السلام-.

عرض الروايات

نستطيع تقسيم الروايات التي تدلّنا على بداية وضع النحو العربي، وعلى

واضعه، وعلى سبب وضعه إلى قسمين، وسوف نذكرهنا نماذج لكل قسم، وهناك روايات أُخرى، يلاحظها القارئ في مختلف الكتب، وسوف نذكر روايات أُخرى خلال هذه الدراسة:

القسم الأول:

وهي الروايات التي تؤكّد على أنّ الإمام أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب -عليه السلام- هو الذي وضع النحو ومنها:

١- قال القفطي: «الجمهور من أهل الرواية على أنّ أول من وضع النحو أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب، قال أبو الأسود: دخلت على أميرالمؤمنين -عليه السلام- فرأيته مطرقاً مفكّراً، قلت: فيم تفكّر يا أميرالمؤمنين؟ قال: سمعت ببلدكم لحناً فأردت أن أضع كتاباً في أُصول العربية، ثمّ أتيته بعد أيام فألقى إليَّ صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، الكلام: إسم وفعل وحرف، فالإسم ما أنبأ عن المسمّى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمّى، والحرف ما أنبأ عن معنىً ليس بإسم ولا فعل، ثمّ قال: تتبّعه وزد فيه ما وقع لك، وأعلم أنّ الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، وإنّما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بمضمر ولا ظاهر»[١].

وفي الإنباه أيضاً رواية عن أبي الأسود، قال: «دخلت على أميرالمؤمنين فأخرج لي رقعة فيها: (الكلام كلّه إسم وفعل وحرف جاء لمعنى) فقلت: ما دعاك إلى هذا، قال: رأيت فساداً في كلام بعض أهلي فأحببت أن أرسم رسماً يُعرف به الصواب من الخطأ، فأخذ أبو الأسود النحو من علي ولم يظهره»[٢].

وفي الإنباه أيضاً -ولعلّها ملحقة بالرواية السابقة-: «انّ زياداً سمع بشيءٍ عند أبي الأسود ورأى اللحن قد فشا فقال لأبي الأسود: أظْهِر ما عندك للناس

---

(١) إنباه الرواة: ٤.

(٢) إنباه الرواة: ٥.

ليكون إماماً، فامتنع عن ذلك...»[٣].

٢ـ وذكر السيد حسن الصدر في كتابه تأسيس الشيعة: «قال ركن الدين علي بن أبي بكر الحديثي في كتاب الركني: انّ أول من وضع النحو أبو الأسود، أخذه من علي ـ عليه السلام ـ وسببه أنّ امرأة دخلت على معاوية في زمن عثمان وقالت: أبوي مات وترك مالاً، فاستقبح معاوية ذلك، فبلغ علياً فرسم لأبي الأسود، فوضع أولاً باب الاضافة»[٤].

٣ـ وقال ابن الأنباري: «وروي أنّ سبب وضع علي لهذا العلم أنّه سمع أعرابياً يقرأ: لا يأكله إلّا الخاطئين، فوضع النحو»[٥].

القسم الثاني:

وهي تدلّ على أنّ أبا الأسود هو الذي وضع النحو:

١ـ قال ابن خلّكان: «وقيل: كان أبو الاسود يعلّم أولاد زياد بن أبيه فجاء يوماً وقال له: أصلح الله الأمير، إنّني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم، وتغيّرت ألسنتهم، أفتأذن لي أن أضع للعرب ما يعرفون أو يقيّمون به كلامهم، فقال: لا، فجاء رجل إلى زياد وقال: أصلح الله الأمير، توفي أبانا وترك بنون، فقال زياد: ادعوا لي أبا الأسود، فلمّا حضر، قال: ضع للناس الذي نهيتك عنه»[٦].

٢ـ وفي الأغاني: «انّ أبا الأسود دخل على ابنته بالبصرة فقالت: يا أبتي ما أشدُّ الحرَّ، فرفعت كلمة (أشدّ) فظنّها تسأله وتستفهم منه أيُّ زمان الحرّ أشدُّ؟ فقال: شهر ناجر، فقالت: يا أبتي إنّما أخبرتك، ولم أسألك»[٧].

---

(٣) إنباه الرواة: ٥.

(٤) تأسيس الشيعة: ٤٨.

(٥) نزهة الألبّاء: ٣.

(٦) الوفيات ١/٢٤٠.

(٧) الأغاني ١١/١١٩.

هذه نماذج للروايات الكثيرة في هذا المجال، التي تمتلئ بها كتب الأدب والنحو والتاريخ، وسوف نذكر رواياتٍ أُخرى بهذا المضمون، وسوف نفسّر هذا الاختلاف في سبب الوضع والواضع.

المؤيّدون وأدلّتهم

المؤيّدون:

لم أجد من القدماء من يتنكّر لصحّة هذه الروايات إلّا أفراداً قلائل جدّاً، أمّا المعاصرون فالكثير منهم قد عارض هذه الروايات ورفضها وأثبت عدم صحّتها، وهناك آخرون من المعاصرين قد اتّفقوا مع القدماء في تأييدها.

والحديث الآن يدور حول المؤيّدين وأدلّتهم.

فقد عقد السيد حسن الصدر في كتابه «تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام» فصلاً كبيراً جمع فيه شتّى الزوايات والآراء التي نسبت وضع النحو للإمام -عليه السلام- أو لأبي الأسود.

١- ونذكر بعض المؤيّدين الّذين ذكروا في كتبهم آراءهم:

فمنهم: محمد بن سلام الجمحي -المتوفى سنة ٢٣٢- يقول: «وكان لأهل البصرة قدمة بالنحو، وبلغات العرب والغريب عناية، وكان أول من أسّس العربية وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي»[٨].

ومنهم: أبو قتيبة الدينوري -المتوفى سنة ٢٧٦- في كتابيه «الشعر والشعراء» و«المعارف» حيث يقول: «وهو أول من وضع العربية»[٩] ويقول: «أبو الأسود الدؤلي يعدّ في النحويّين لأنّه أول من عمل كتاباً في النحو بعد علي بن أبي طالب عليه السلام»[١٠].

---

(٨) طبقات الشعراء: ٩-١٠.

(٩) الشعر والشعراء: ٥٧٠.

(١٠) المعارف: ٨٠.

ومنهم: ابن النديم ـ المتوفى سنة ٢٨٠ ـ فيقول: «زعم أكثر العلماء أنّ النحو أُخذ عن أبي الأسود، وأنّ أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ»[١١].

ومنهم: أبو الطيّب اللغوي الحلبي ـ المتوفى سنة ٣٥١ ـ حيث يقول: «ثمّ كان أول من رسم للناس النحو أبو الأسود الدؤلي»[١٢].

ومنهم: السيرافي ـ المتوفى سنة ٣٦٨ ـ يقول: «اختلف الناس في أول من رسم النحو، وأكثر الناس على أبي الأسود الدؤلي»[١٣].

ومنهم: أبو هلال العسكري في كتابه «الأوائل»، وأبو الفرج الأصبهاني في كتابه «الأغاني»، والزجّاجي في أماليه، وابن خلدون في مقدّمته، والقفطي في «إنباه الرواة»، وابن الأنباري في «نزهة الألبّاء»، والسيوطي في «الأشباه والنظائر».

ولو أردنا استعراض القدماء الّذين صرّحوا في كتبهم بصحّة هذا الرأي، والروايات في هذا المجال، لطال بنا الحديث، لذلك نكتفي بذكر هؤلاء وسنذكر بعضهم خلال هذه الدراسة.

٢ـ وهناك من القدماء من روي عنهم صحّة هذا الرأي والروايات، ويدخل في ذلك كثير من النحاة الّذين رويت عنهم هذه الروايات، أو روي عنهم أنّهم صرّحوا بصحّة نسبة وضع النحو للإمام ـ عليه السلام ـ أو لأبي الأسود.

فصاحب «الأغاني»[١٤] يروي رواية تؤكّد هذه النسبة، ومن رجال سندها عبدالله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وسيبويه، والخليل.

ويروي صاحب «المحاسن والمساوئ» عن يونس بن حبيب النحوي ـ المتوفى سنة ١٨٣ ـ قوله: «أول من أسّس العربية وفتح بابها ونهج سبيلها أبو

---

(١١) الفهرست: ٥٩.

(١٢) مراتب النحويّين: ٥٠٦.

(١٣) أخبار النحويّين البصريّين: ١٠.

(١٤) الأغاني: ١٩٩ ح ١١.

الأسود الدؤلي، واسمه ظالم بن عمرو»[١٥].

ويروى عن معمر بن المثنى -المتوفى سنة ٢٠٩- أنّه قال: «أخذ أبو الأسود عن علي بن أبي طالب -عليه السلام- العربية»[١٦].

ومثل ذلك يروي لنا الزجّاجي في أماليه عن المبرّد.

ويقول أبو عمر عثمان بن سعيد الداني -المتوفى سنة ٤٤٤- في كتابه «المحكم في نقط المصاحف»: «حدّثنا محمد بن علي، قال: حدّثنا ابن الأنباري، قال: حدّثنا أبي، عن عمر بن شيبة، عن الثوري، قال: سمعت أبا عبيدة معمر بن المثنّى يقول: أول من وضع النحو أبو الأسود الدؤلي، ثم ميمون الأقرن».

أدلّة المؤيّدين:

ومن خلال ذلك كلّه نستطيع الوصول إلى الدليل الذي استند إليه المؤيّدون في رأيهم:

١- يقول السيرافي: «وأكثر الناس على أبي الأسود»[١٧].

ويقول ابن الأنباري: «إنّ الروايات كلّها تسند وضع النحو إلى أبي الأسود، وأبو الأسود يسنده إلى علي -عليه السلام-»[١٨].

ويقول الفخر الرازي: «وتطابقت الروايات على أنّ أول من وضع النحو أبو الأسود، وأنّه أخذه أولاً من علي -عليه السلام-»[١٩].

وهكذا يقول السيوطي.

وبذلك تكون الأدلّة: إجماع العلماء واتّفاقهم، وشهرة الروايات وتواترها المعنوي، والروايات المسندة لرجال لهم اعتبارهم ووثاقتهم.

---

(١٥) نقلاً عن كتاب تأسيس الشيعة: ٤٠.

(١٦) أخبار النحويّين البصريّين: ١١.

(١٧) أخبار النحويّين البصريّين: ١٠.

(١٨) نزهة الألبّاء: ٦.

(١٩) نقلاً عن مدرسة البصرة النحوية: ٤٧.

ويتبنّى هذا الإجماع والاتّفاق من المعاصرين الأُستاذ العقّاد، وعبدالرحمن السيّد، وكمال إبراهيم كما سنتعرّض لآرائهم.

٢- ولا أقول: إنّ التواتر، والاتّفاق، والروايات الصحيحة هي الأدلة الوحيدة التي اعتمد عليها المؤيّدون إلى صحّة هذا الرأي، فهناك أدلّة أُخرى سوف نراها تظهر خلال هذه الدراسة، ولكنّها الأدلّة الرئيسية في هذا المجال.

المعارضون واعتراضاتهم

نظرة عامة:

لعلّ ما يثير الاستغراب والدهشة حقّاً، أنْ يظهر فجأة من يحاول التشكيك في هذا الرأي، وهو وضع الإمام -عليه السلام- أو أبي الأسود للنحو العربي، أو يحاول تكذيبه ورفضه بعد تطابق القدماء وإجماعهم على صحّة هذا الرأي.

والمعاصرون الّذين أنكروا صحّة هذا الرأي، نذكر منهم أحمد أمين في كتابه «ضحى الإسلام»، وإبراهيم مصطفى في بحثه في «مجلّة كلّية الآداب» المصرية، وشوقي ضيف، وكثيراً من المستشرقين الّذين اعتبروا مثل هذه الأحاديث (حديث خرافة) أمثال دائرة المعارف الإسلامية، وهناك غيرهم من المعاصرين لم نذكر أسماءهم.

اعتراضات المعارضين:

يلاحظ أنّني قسّمت الاعتراضات تقسيماً محدّداً لنبتعد بذلك عن الاضطراب المنهجي الذي حدث للكثير ممّن حاول عرض الاعتراضات الموجّهة لهذا الرأي أو حاول مناقشتها، والاعتراضات هي كما يلي:

١ـ بداوة العقلية في عصر الإمام ـعليه السلامـ:

ولعلّ هذا الاعتراض هو أهمّ الاعتراضات، وأظنّ أنّ المصدر الأول له هم المستشرقون[٢٠]، كما يبدو من دائرة المعارف الإسلامية، وقد تبنّاه أحمد أمين حيث يقول ـبعد عرض الروايات السابقةـ: «كل هذا حديث خرافة، فطبيعة زمن علي ـعليه السلامـ وأبي الأسود تأبى هذه التعاريف وهذه التقاسيم الفلسفية، والعلم الذي ورد إلينا من هذا العصر في كل فرع يتناسب مع الفطرة، وليس فيه تعريف ولا تقسيم، إنّما هو تفسير آية أو جمع لأحاديث ليس فيها ترتيب ولا تبويب، فأمّا تعريف وأمّا تقسيم منطقي فليس في شيء ممّا صحّ نقله إلينا عن عصر علي وأبي الأسود»[٢١].

وسعيد الأفغاني يؤيّد أحمد أمين في رأيه هذا فيقول: «ولعلّ الأُستاذ ـأي أحمد أمينـ لم يكن بعيداً من الصواب حين روى هذا الخبر فعلّق عليه ما يلي»[٢٢]،

---

(٢٠) ولا نريد الآن الحديث عن المستشرقين ودراسة واقعهم، فكثير من الباحثين المسلمين والعرب قد درسوا حركة المستشرقين ـأُسسها وأهدافها وآثارها ورجالهاـ دراسة مركّزة وتوصّلوا إلى نتائج لها أهمّيتها في هذا المجال، لعلّ من أهم هذه الأهداف هي محاولة أكثر المستشرقين ـلا كلّهم بالطبعـ عن عمد أو غير عمد في تشويه الإسلام والانتقاص من قدرات المسلمين، وخاصّة العناصر والحركات والمعتقدات الصالحة والمستقيمة من المسلمين، وكان بودّي دراسة هذه الحركة لولا ضيق المجال وبعدها عن صميم الرسالة وكتابة البعض من الكُتّاب المسلمين المنصفين عنها، ولكنّ من الغريب أن نرى عند بعض كُتّابنا الإيمان بكل ما يكتبه المستشرقون كحقيقة موضوعية راهنة لا تقبل النقاش، كأحمد أمين وغيره، ولو أنّ الحديث عن أحمد أمين لا يقلّ اتّساعاً وغرابة من الحديث حول المستشرقين وخاصة موقفه من الشيعة ـمعتقداتها وأحاديثها ورجالهاـ وقد درس هذا الموقف منه بعض كُتّاب الشيعة، فلعلّ رأيه هذا ـفي وضع النحوـ كسائر مواقفه تجاه الشيعة، كما نلاحظ تأثّره بالمستشرقين في هذا المجال عند قوله عن هذه الروايات بأنّها (حديث خرافة) وهو نفس التعبير الذي أطلقه بعض المستشرقين كما يلاحظ ذلك من النصّ الذي نذكره عن إبراهيم مصطفى، ومن هنا نرى مدى تأثير المستشرقين على فكرنا المعاصر، ونلاحظ أيضاً مدى بقاء الأفكار التقليدية الجاهلية في أذهان البعض.

(٢١) ضحى الإسلام ٢/٢٨٥.

(٢٢) في أُصول النحو: ١٥٥.

ثم يذكر حديث أحمد أمين السابق.

وهذا الرأي يتبنّاه أيضاً إبراهيم مصطفى فيقول: «ولكنّنا لا نستطيع أن نتقبّل ذلك ـ أي وضع الإمام (عليه السلام) للنحو ـ بيسر، ولا أن نستسيغ أنّ هذا الزمن المبكّر قد تمكّن فيه العرب من الاشتغال بالعلوم ووضع القواعد على هذا الوجه الذي نراه في كتب العربية، وقد أنكر ذلك المستشرقون وعدّوه حديث خرافة»[٢٣].

ويقول عبدالكريم الدجيلي: «وفي وسعنا أن نقول: إنّ طبيعة العرب في صدر القرن الأول للهجرة لم تكن طبيعة تقسيم وتبويب وتعريف للجزئيّات والأقسام والفصول، ولا يقع في تفكير هذا الطبع الساذج ذلك الجدل النحوي ولا تلك المماحكات، وإنّما هو طبع بسيط ينظر للأُمور عامّتها لا خاصّتها، وكلّياتها لا جزئيّاتها، وهذا القول يتناسب وما ورد إلينا من التراث الثقافي لذلك العصر كتفسير بعض الآبيات»[٢٤].

إذاً فالمعاصرون يستبعدون هذه النسبة ـ نسبة وضع النحو للإمام (عليه السلام) أو لأبي الأسود ـ: «لقرب العرب في عصر أبي الأسود من غضاضة البداوة، إذ لا بُدّ من وضع قواعد العلوم من مدارسة واصطلاح لم تهيّأ لها عقول العرب بعد»[٢٥].

٢ـ التأثّر بالثقافات الأجنبيّة:

وهذا الاعتراض لا يقلّ أهمّية عن الاعتراض الأول، بل لعلّه يرتبط به ارتباطاً وثيقاً، فيقول المعارضون: «إنّ ما جاء في التحديدات والتقسيمات من طبيعة منطقية أو فلسفية لم تكن تتناسب والعقلية العربية في ذلك الزمن، وإنّما

---

(٢٣) مجلّة كلّية الآداب: ١ ـ ٦.

(٢٤) مقدّمة ديوان أبي الأسود: ٦٦.

(٢٥) مصطفى السقّا، نشأة الخلاف في النحو، مجلّة اللغة العربية، ج ١ ص ٩٥.

وقع بعد نقل الفلسفة والمنطق اليوناني إلى العربية، وتغلغل ذلك في علوم العربية والعلوم الإسلامية»[٢٦]، ويذهب لهذا الرأي الكثير من المستشرقين والمتأخّرين.

٣ـ تاريخ التدوين:

وهناك اعتراض آخر يوجّه إلى تاريخ تدوين هذه الروايات، حيث يذكر بأنّها متأخّرة، فلم تذكر آراء نحوية للإمام ـعليه السلامـ أو لأبي الأسود في الكتب النحوية الأُولى ككتاب سيبويه أو أيّ كتاب نحوي آخر، يقول إبراهيم مصطفى: «ويلاحظ أول ما يلاحظ أنّنا لم نجد في كتاب سيبويه، ولا فيما بعده رأياً نحوياً نسب إلى أبي الأسود، ولا إلى طبقتين بعده، فنحن أمام حقيقة واضحة أُخذت من كتب النحو، وهي أنّ أقدم من نسب إليه رأي نحوي هو عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي»[٢٧].

٤ـ اختلاف الروايات:

في لفظها ومتنها، وفي سبب وضع النحو، وفي واضعه، ممّا يؤدي إلى الشكّ في الروايات نفسها، يقول أحمد أمين بعد حديثه السابق: «ويشهد لهذا ـأي لرأيه في تكذيب الروايات ـ الروايات الكثيرة المتناقضة في سبب الوضع»[٢٨].

ويقول الدجيلي: «وهذه الروايات التي تتنازع واضع النحو، والتي تتباين في سبب وضعه، تبدو للمتتبّع الممحّص مختلفة مضطربة لا يُركن إليها، ولا يُطمأنّ إلى ما تهدف إليه»[٢٩].

ويقول فؤاد حنّا ترزي: «وتبدو هذه الروايات مضطربة متناقضة»[٣٠].

---

(٢٦) كمال إبراهيم، واضع النحو الأول، مجلّة البلاغ، السنة الأُولى، العدد٨ ص١٧.

(٢٧) نقلاً عن كتاب مدرسة البصرة النحوية: ٥٣.

(٢٨) ضحى الإسلام ٢/٢٨٥.

(٢٩) مقدّمة ديوان أبي الأسود: ٦٧.

(٣٠) في أُصول اللغة والنحو: ١٠.

٥ـ التنقيط والنحو:

ويتوصّل هؤلاء المعارضون المعاصرون بعد الاعتراضات ـالتي ذكرناهاـ إلى أنّ أبا الأسود لم يضع النحو، بمعناه المصطلح الجديد، بل الذي وضعه هو تحريك المصحف الشريف بالنقط، كما أجمع على ذلك الباحثون من القدامى والمعاصرين، وهذا الذي فعله أبو الأسود قد ظنّه القدماء نحواً، لذلك نسب إليه وضع النحو، ويكاد يجمع ويتّفق على هذه النتيجة كل المعارضين، يقول أحمد أمين: «وعلى هذا فمن قال:إنّ أبا الأسود وضع النحو فقد كان يقصد شيئاً من هذا، وهو أنّه وضع الأساس بضبط المصحف حتى لا يكون فتحة موضع كسرة، ولا ضمّة موضع فتحة، فجاء بعده من أراد أن يفهم النحو على المعنى الدقيق، فاخترع تقسيم الكلمة»[٣١].

ويقول الدجيلي: «فنحو أبي الأسود هو في الواقع تثبيت للنطق العربي حين قراءة القراءات وترتيل الآيات، فهو إذاً قد وضع الجذر للنحو العربي فبهذا الرأي المنطقي نرفض الروايات»[٣٢].

ويذهب إلى هذا الرأي إبراهيم مصطفى أيضاً.

واضع النحو الأول

وبعد كل هذه الاعتراضات يحقّ لنا التساؤل، إذاً فمن هو واضع النحو الأول؟

هنا عدّة إجابات للباحثين ـمن القدماء والمعاصرينـ عن هذا التساؤل:

١ـ إنّ النحو لم يضعه أبو الأسود، بل وضعه بعض تلاميذه، فبعضهم

---

(٣١) ضحى الإسلام ٢/٢٨٥.

(٣٢) مقدّمة ديوان أبي الأسود: ٧٠.

يذهب إلى أنّ النحو قد وضعه عبدالرحمن بن هرمز[٣٣] تلميذ أبي الأسود، أو ابن عاصم[٣٤] وهو تلميذه أيضاً، وهناك من يذهب إلى أنّ واضع النحو غيرهما.

٢ـ إنّ النحو قد وضع قبل أبي الأسود، وينفرد بهذا الرأي ابن فارس ـ كما هو رأيه في نشأة العروض ـ فيقول: «إنّ هذين العِلْمين قد كانا قديماً وأتت عليهما الأيام وقلّا في أيدي الناس ثمّ جدّده هذان العَلَمان»[٣٥]، ويقصد منهما أبو الأسود والخليل.

ولكنّ هذين الرأيين يفقدان عناصر الصحّة والسلامة:

فالرأي الأول لم يلتزم به إلّا بعض قليل من المؤرّخين، وبعض هؤلاء الّذين التزموا بهذا الرأي اعتبروا الرأي الصحيح والرئيس هو وضع أبي الأسود للنحو، ونسبوا رأيهم هذا إلى كلمة (قيل) كدليل على ضعفه وقلّة شأنه.

أمّا رأي ابن فارس، فهو لا يعتمد على سند تاريخي أولاً، ولا يؤيّده أحد من القدماء والمعاصرين ـ كما أعلم ـ ثانياً، وعدم وجود الروايات التي تدعمه.

إذاً فنبقى نحن وهذه الروايات التي تنسب وضع النحو للإمام ـ عليه السلام ـ أو لأبي الأسود، لنبحث عن مدى ثباتها تجاه الاعتراضات الموجّهة لها، ومدى توافقها للموازين النقدية والعلمية.

مناقشة الاعتراضات

المناقشة العامة:

وقبل أن نناقش كل اعتراض من الاعتراضات بصورة مستقلّة، يجدر بنا أن نقول بأنّ بعض المعاصرين ناقش هذه الاعتراضات بصورة عامة، يقول كمال إبراهيم عن اعتراضات المعارضين: «وهذه كلّها أقاويل واجتهادات لا تقوم على

---

(٣٣) أخبار النحويّين البصريّين: ١٦.

(٣٤) أخبار النحويّين البصريّين: ١٥.

(٣٥) نقلاً عن تأسيس الشيعة: ٤٠.

سند يعتدّ به، والروايات التي هي أقرب إلى عهد الوضع هي الأحرى بالأخذ والثقة بها»[٣٦].

ويستغرب الطنطاوي من مثل هذا التشكيك والتكذيب من المعاصرين في نسبة النحو للإمام -عليه السلام- أو لأبي الأسود فيقول: «فمن الغريب بعدئذ أن يستنكر المستشرقون هذه النسبة المتواطأ عليها قديماً وحديثاً»[٣٧].

فهذه الاعتراضات، هي أقرب إلى الفروض التي لم تبلغ مستوى النظرية والجزم العلمي في مقابل التواتر والإجماع الذي بلغ مستوى الجزم العلمي، فهي أقرب إلى السفسطة في مقابل الواقع الراهن، فهذه الاعتراضات هي من قبيل الاجتهادات في مقابل النصّ، فمع وجود هذه الروايات والنصوص الكثيرة وإجماع القدماء -المقاربين في زمانهم لزمان أبي الأسود على وضعه للنحو- فلا مجال لكل هذه الاجتهادات والافتراضات والسفسطات، والاعتراضات المشكّكة لوضع أبي الأسود للنحو حتى لو تلبّست بلباس البحث العلمي.

مع الاعتراض الأول

علم الإمام المعصوم:

الاعتراض الأول يدفعنا إلى الخوض في بحوث عقائدية كلامية تدور حول علم الإمام المعصوم، وحول الإمام علي -عليه السلام- حيث يطفح «نهج البلاغة» بمثل هذه التقسيمات والمصطلحات والأفكار المنطقية والفلسفية وغيرها من المعارف السامية التي لم تفتضّ أسرارها ولم تكشف رموزها وكنوزها إلّا بعد مرور مراحل زمنية طويلة، بعد ارتقاء الفكر البشري وثراء معلوماته، وربّما ستمرّ أجيال طويلة بعد ذلك ولا يتوصّل إلى عمق أسرارها ومعطياتها الزاخرة.

والملاحظ في هذا المجال أنّ الشبهات والاعتراضات التي يثيرها البعض

---

(٣٦) مجلّة البلاغ، واضع النحو الأول، العدد ٨، ص ١٨.

(٣٧) نشأة النحو: ٢٠.

حول نسبة النحو للإمام -عليه السلام- أو نسبة التقسيم الثلاثي وتعريفاته تشابه الشبهات التي أثارها البعض حول «نهج البلاغة» ومدى صحة نسبته للإمام -عليه السلام- حيث يزخر ببعض التقسيمات والتعريفات والمصطلحات والأفكار التي لا يمكن أن تنشأ في تلك الفترة الزمنية البدائية من حيث الوعي والثقافة.

ولسنا هنا -في هذه الدراسة- في مجال البحث عن «نهج البلاغة» وصحة نسبته للإمام -عليه السلام-، فإنّ لهذا الموضوع مجالاً آخر، ولكن نشير هنا وبإيجاز إلى ملاحظة عابرة، ونترك التوسّع للدراسات الأُخرى التي كتبت حول هذه القضية:

هناك بعض الشبهات والشكوك التي أثارها بعض القدماء والمعاصرين حول «نهج البلاغة» ومدى صحّة نسبته للإمام -عليه السلام- كلّه أو بعضه، وأنّه في الواقع -حسب رأي هؤلاء- من تأليف الشريف الرضي نفسه، ومن هؤلاء الكثير من العرب والمستشرقين، ولعلّ رأيهم في هذا المجال يشابه رأيهم في وضع النحو العربي، وبعض أدلّتهم متشابهة.

فمن المشكّكين القدامى، ابن خلّكان، ولعلّه أول من بذر بذور التشكيك حول «نهج البلاغة»، وتبعه الصفدي في «الوافي بالوفيات»، واليافعي في «مرآة الجنان»، والذهبي في «ميزان الاعتدال»، وابن حجر في «لسان الميزان»، وابن خلدون، وغيرهم من القدامى.

ومن المعترضين المعاصرين أحمد أمين في «فجر الإسلام»، وشوقي ضيف في كتابه «الفنّ ومذاهبه في الأدب العربي»، ومحمد سيّد كيلاني في كتابه «أثر التشيّع في الأدب العربي»، وغيرهم.

وقد تصدّى لمناقشتهم جماعة من الباحثين، وخاصة الباحثين الشيعة أمثال الشيخ هادي كاشف الغطاء في كتابه «مدارك نهج البلاغة»، والسيد هبة الدين الشهرستاني في كتابه «ما هو نهج البلاغة»، والشيخ الأميني في كتابه «الغدير»، والسيد عبدالزهراء الخطيب في كتابه «مصادر نهج البلاغة» وغيرهم.

والملاحظ أنّ قصّة الشبهات التي أُثيرت حول نسبة «نهج البلاغة» للإمام -عليه السلام- حيث أنّهم نسبوه للشريف الرضي، هذه الأُسطورة قد قُضي عليها أخيراً على أيدي بعض الكُتّاب المؤمنين المخلصين الّذين قاموا بدراسات واعية وبحوث إحصائية أثبتوا من خلالها أنّ «نهج البلاغة» لا يمكن أن يكون من إنشاء الشريف الرضي، وذلك لوجود أكثر الخطب والأحاديث في مصادر و كتب متقدّمة زمنياً على زمان الشريف الرضي، إذاً فإذا ثبتت صحّة نسبة «نهج البلاغة» للإمام -عليه السلام- فمن السهل ثبوت نسبة التقسيم الثلاثي أو بدايات النحو للإمام -عليه السلام- لما في «نهج البلاغة» من تعريفات وتقسيمات ومصطلحات وأفكار عالية المضامين والمعاني تدلّ على إبداع وعلى قوى فكرية هائلة.

ونحن نلاحظ أنّ القرآن الكريم يشتمل على الكثير من التقسيمات والمضامين السامية، فلا يستغرب صدور مثل هذه التقسيمات والإبداعات في تلك الفترة الزمنية من الإمام -عليه السلام- وهو تلميذ القرآن، والذي عايش القرآن الكريم منذ صغره، وكذلك نلاحظ وجود التقسيمات والتعاريف والمصطلحات في الأحاديث النبوية، فلا غرابة في أنّ يتعلّم منها من نشأ وعاش في أجوائها، وخاصة الإمام -عليه السلام- الذي يملك من القوى الفكرية الزاخرة التي يشهد بها الجميع.

والملاحظ أنّ البعض من القدامى والمعاصرين الذي شكّك في نسبة «نهج البلاغة» للإمام -عليه السلام- قد ذهب إلى صحّة نسبة النحو للإمام -عليه السلام- أو لأبي الأسود ولم يشكّك في نسبة النحو.

وبعد هذه الملاحظة الموجزة والعابرة، نقول: بأنّنا سنترك هذا الجانب العقائدي في دراستنا، ولو أنّ الإيمان به وحده يغني عن عرض الأدلّة والنقاش، كما آمن به من تعرّف على حقيقة الإمام -عليه السلام- وما يملكه من قوى ومعارف، ونبحث عن هذه الواقعة التاريخية من خلال الواقع التاريخي نفسه والروايات نفسها، ونحاول دراسة هذه الظاهرة على حسب السيرة والطرق

والأساليب التي يؤمن بها المعترضون في نشأة العلوم والمعارف البشرية.

شيوع اللحن ومحاربته

١ـ انتشار اللحن:

نحن نعلم أنّ النحو لم يوضع جزافاً وعبثاً ـ كما هو الحال في كل ظاهرة جديدة ـ فلا بُدّ من حاجة ملحّة على ظهورها، وقد قالوا: «إنّ الحاجة أُمّ الاختراع»، ولا بُدّ من دوافع أدّت إلى إبداع النحو، وإلّا لو لم توجد مثل هذه الدوافع لما كان هنا تفكير في إبداعه. أجل ، إنّما وضع النحو لأجل مواجهة الظروف والأجواء الجديدة التي ظهرت آنذاك والتي أشاعت اللحن على ألسنة الناس، ولعلّ أهمّ الأسباب لذلك هو الاختلاط بين العرب والشعوب الأجنبية الأُخرى التي دخلت الإسلام، أو خضعت للحكم الإسلامي وعاشت في بلاد المسلمين، أو ارتبط بها المسلمون ببعض العلاقات التي فرضتها الظروف الجديدة، وبإيجاز فإنّ هذا الاختلاط بكل صوره وأساليبه قد فرضته الظروف الجديدة التي خلقها انبثاق الإسلام وبعثته وتحرّكه، ومن طبيعة هذا الاختلاط في الألسنة أن يخلق اللحن، ولو راجعنا تاريخ اللحن لرأيناه قد ظهر حتى في عصر الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ فيقول أبو الطيّب الحلبي: «... لأنّ اللحن ظهر في كلام الموالي والمتعرّبين من عهد النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ فقد روينا أنّ رجلاً لحن بحضرته فقال: ارشدوا أخاكم»[٣٨].

وبعد عصر الرسول ـ صلّى الله عليه وآله ـ وبعد أن اتّسعت الفتوحات الإسلامية وازداد الاختلاط أخذ اللحن يشيع تدريجياً على الألسنة نتيجة لاتّساع اختلاط العرب مع غيرهم فقد «كتب كاتب لأبي موسى إلى عمرَ (من أبو موسى...)، فكتب إليه عمر: سلام عليك، أمّا بعد، فاضرب كاتبك سوطاً

---

(٣٨) مراتب النحويّين: ٥.

واحداً، و أخّر عطاءه سنة»[٣٩].

وروى الجاحظ أنّ «أول لحن سمع بالبادية: هذه عصاتي، بدل عصاي، وأول لحن سمع بالعراق: حَيٌّ على الفلاح، بكسر الياء بدل فتحها»[٤٠].

وينقل ابن قتيبة: «انّ رجلاً دخل على زياد فقال: إنّ أبينا هلك، وإنّ أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا، فقال زياد: ما ضيّعتَ من نفسك أكثر ممّا ضاع من مالك»[٤١].

وفي زمان خلافة الإمام -عليه السلام- حيث ازدادت رقعة الاختلاط وتوسّعت وكثر اللحن نتيجة لذلك، لمّا دخل الإمام -عليه السلام- العراق، والبصرة بالذات، وهي المركز الحضاري الذي كثر فيه الاختلاط، لاحظ مدى شيوع اللحن على الألسنة، فروى ابن الأنباري أنّ الإمام -عليه السلام- قال: «إنّي تأمّلت كلام الناس فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء -يعني الأعاجم-»[٤٢].

وكان أبو الأسود -بين آونة وأُخرى- بسبب انتمائه للشيعة وصحبته للإمام -عليه السلام- ينقل إليه أخباراً خطيرة عن هذا اللحن، فتنقل عن أبي الأسود الرواية المشهورة التي يصرّح فيها بعروض اللحن على ابنته[٤٣].

فاللحن إذاً بلغ حدّاً من الخطورة أنْ دخل بيته، وكان أبو الأسود يحسّ باللحن -شأن العرب الفصحاء آنذاك- كما ينقل السيرافي: «قال أبو الأسود الدؤلي: إنّي لأجد لِلّحن غمراً كغمر اللحم»[٤٤].

وهناك حكايات كثيرة تنقل عن شيوع اللحن على الألسنة آنذاك.

---

(٣٩) مراتب النحويّين: ٦.

(٤٠) من تاريخ النحو: ١١.

(٤١) من تاريخ النحو: ١١.

(٤٢) نزهة الألبّاء: ٢.

(٤٣) أخبار النحويّين البصريّين: ١٢.

(٤٤) أخبار النحويّين البصريّين: ١٤.

٢ـ خطورة اللحن:

ونتيجة لذلك أخذ الإمام ـعليه السلامـ يشعر بخطورة اللحن وقد ظهر في هذا المجال عامل جديد، يعتبر أهمّ العوامل التي دفعت الإمام ـعليه السلامـ إلى التفكير في وضع قواعد للّغة ـأي النحوـ وهو العامل الديني، أي الإحساس بخطورة هذا اللحن على التشريع الإسلامي والقرآن الكريم والأحاديث الشريفة، فإنّ اللحن في القرآن الكريم له أخطاره الكبيرة في مجال فهم الأحكام الشرعية، حيث يؤدّي اللحن إلى غموض معانيه كما يقول ابن خلدون في مجال تأثير اللحن: «وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد المَلَكة رأساً ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على الفهوم»[٤٥].

ويقول أبو عبدالله الزنجاني: «وحدثت عدّة حوادث نبّهتهم إلى النهوض إلى صيانة القرآن الذي هو أساس الدين وحفاظ الإسلام من أن يطرق اللحن عليه»[٤٦].

وقد شاع اللحن في قراءة القرآن الكريم آنذاك فينقل السيرافي أنّ أبا الأسود: «سمع قارئاً يقرأ: إنّ الله بريء من المشركين ورسولِه»[٤٧] بالكسر، وقال ابن الأنباري: «وروي أنّ سبب وضع علي لهذا العلم أنّه سمع أعرابياً يقرأ: لا يأكله إلّا الخاطئين»[٤٨] حيث صرّحت هذه الرواية بأنّ السبب الرئيس في وضع النحو هو السبب الديني، بل إنّ العامل الديني هو العامل الرئيس في وضع علماء المسلمين لأكثر علومهم أيضاً، بل ربّما كانت العوامل الأُخرى داخلة ضمن العامل الديني كما صرّح بهذا الدافع ابن خلدون وغيره.

---

(٤٥) مقدّمة ابن خلدون: ٥٠٢.

(٤٦) تاريخ القرآن: ٨٧.

(٤٧) نزهة الألبّاء: ٣.

(٤٨) نزهة الألبّاء: ٣.

إذاً فلأجل الحفاظ على نصوص القرآن الكريم والأحاديث الشريفة أن تتعرّض للتغيير والتبديل، ولسوء الفهم وعدم القدرة على فهمها، وعدم التمكّن من استخراج الأحكام الشرعية والمفاهيم الإسلامية بصورة صحيحة، كل ذلك حفّز الامام -عليه السلام- لوضع النحو، لأنّه خليفة المسلمين، والذي عليه مهمّة الحفاظ على الإسلام والقرآن الكريم لكل الأجيال.

٣- محاربة اللحن:

فكان على الإمام -عليه السلام- أن يحارب هذا الخطر الجديد باعتباره خليفة المسلمين وإمامهم وعلى عاتقه مهمّة الحفاظ على القرآن الكريم والاحاديث الشريفة من الخطأ واللحن، وكان يشاركه في هذا الشعور أبو الاسود الذي كان يشعر باللحن -كما ذكرنا ذلك في الرواية السابقة- وكان يعتبر المستشار في الكثير من القضايا اللغوية -آنذاك- لدى الخلفاء والولاة، والذي تعرّف على مدى شيوع اللحن على الألسنة ومدى خطورته الدينية واللغوية، وكان الدافع لأبي الأسود هو الدافع الديني، لذلك قام بتنقيط المصحف الشريف دون سواه، ولم يتحرّك إلّا حين شعر بالخطر المحدق بالمصحف الشريف، ولكنّ هذا العمل -رغم أهمّيته- لا يؤدّي هذه الوظيفة بصورة تامّة، لذلك اندفع الإمام -عليه السلام- وأبو الأسود إلى التفكير جدّياً في محاربة هذا الوباء الزاحف ومعالجته، وذلك بوضع النحو الذي يتكفّل بهذه المهمّة الخطيرة، فإنّ علم النحو هو الذي يمكنه القضاء على هذا المرض الذي أخذ يشيع في الأُمّة الإسلامية، وأمّا التنقيط فإنّه وإن كان يشكّل جزءاً لا ينفصل عن هذه المهمّة التي تبنّاها الإمام -عليه السلام- وكلّف بها أبا الأسود -بعد أن مهّد له السبيل- ولكنّه لا يمكنه معالجة اللحن بصورة تامّة كعلم النحو، كما سنرى ذلك.

وأمّا الاعتراض بأنّ تلك الفترة -عصر الإمام (عليه السلام)- لم تكن تسمح بظهور مثل هذه المصطلحات والأفكار الفلسفية والتقسيمات والتعريفات

حيث لم يكن الإنسان فيها يملك تلك العقلية المتطوّرة، فيمكن مناقشته بما يلي :-

الوضع البدائي للنحو

١ـ نضوج المستوى الفكري:

نحن نعلم بأنّ ظهور الإسلام قد أدّى إلى نضوج المستوى الفكري العام عند الناس، وخاصة طبقة المفكّرين والمثقّفين، حيث حمل الإسلام إلى البشر مفاهيم وتصوّرات جديدة في مختلف مجالات الحياة، بل إنّ الإنسان في عصر البعثة كان قد بلغ مستوىً من الوعي والإدراك أرقى ممّن سبقه، لذلك كانت معجزة النبي ـصلّى الله عليه وآلهـ معجزة فكرية وهي القرآن الكريم، بينما معجزات الأنبياء السابقين كانت حسّية، وهذا ما يدلّ على ارتقاء الوعي عند الإنسان المعاصر لبعثة الإسلام، بالإضافة إلى ما حمله القرآن الكريم والنبي ـصلّى الله عليه وآلهـ إلى البشر من مفاهيم ومعلومات جديدة وتصوّرات في مختلف مجالات الكون والحياة، فرفع من وعيهم وزوّدهم بكثير من المعلومات، بالإضافة إلى اختلاط المسلمين بغيرهم من الشعوب والثقافات، هذه الأسباب وغيرها أدّت إلى ارتفاع مستواهم الفكري والثقافي، وفي تلك المرحلة بالذات ظهرت بدايات حركة علمية تعتمد التفكير الواعي في فهم مختلف المجالات ـوخاصة الثقافيةـ ولو أنّ ما صنعوه وفهموه لا يرتفع في مستواه الفكري والثقافي والعلمي إلى ما نراه اليوم في نفس تلك المجالات.

ومن هنا نرى بعض أحاديث المسلمين آنذاك وأفكارهم ومفاهيمهم أسمى بكثير من أحاديث الجاهليّين، بل أحاديثهم أنفسهم قبل انتمائهم للإسلام، وظهر بعض الرجال الّذين بلغوا مستوى علمياً رفيعاً أمثال عبدالله بن عباس وغيره ـكما نلاحظ أحاديثهم في كتب التاريخ والأدب والفقه وغيرهاـ كل ذلك للزخم الجديد الذي نفخه الإسلام في أذهان المسلمين وقلوبهم،وهذا ما لا يمكن أن

ينكره إلّا من أعمى الشيطان بصيرته.

هل يمكن لنا أن ننكر تأثير الإسلام وتأثير القرآن الكريم وتأثير الأحاديث النبوية في نفوس المسلمين؟! إنّ المسلمين آنذاك كانوا يعيشون الأجواء القرآنية والنبوية الجديدة بكل مشاعرهم، كانت المفاهيم الإسلامية تدخل إلى قلوبهم لتفعل فيها فعل السحر، وكانوا يتعلّمون ويقتبسون منها طريق حياتهم، وكان النبي -صلّى الله عليه وآله- هو القدوة والأُسوة لهم، والقرآن الكريم والأحاديث النبوية حافلة بالاصطلاحات الجديدة والتقسيمات والتفريعات والتعريفات والأفكار الفلسفية والمنطقية.

ألَمْ يتعلّم المسلمون منها طريقة التفكير والاستدلال والمعرفة وخاصة أُولئك الأفراد الّذين يتميّزون بالفكر والوعي والثقافة؟!

ألا نفرّق بين الإنسان قبل الإسلام وبعده؟!

وهل يمكن لناأن ننكرتأثيرالقرآن الكريم والأحاديث النبوية في المسلمين؟!

وهل يمكن لنا أن ننكر وجود المفاهيم الجديدة فيها؟!

إنّ من ينكر هذه الحقيقة الملموسة، فهو لا ينكر دور الإسلام فحسب، بل إنّه ينكر أيضاً حقيقة واضحة وواقعاً تشهد له كل الشواهد الحيّة.

وبعد كل ذلك فليس عجيباً أن تظهر من بعض المسلمين المتميّزين بالفكر والثقافة بعض الإبداعات والتقسيمات الجديدة نتيجة لتأثير المرحلة القرآنية والإسلامية الجديدة وما خلقته في المسلمين من معطيات فكرية وثقافية.

ولعلّنا -من هنا- نستطيع أن نلمح الهدف البعيد الذي تهدفه أمثال دائرة المعارف الإسلامية وبعض المستشرقين والسائرين على خطاهم من إنكار هذه النسبة، حيث كانوا يهدفون إلى عدم تأثير الإسلام في تكوين الوعي الجديد بين المسلمين، وإلى عدم تمكّن المسلم باستقلاله على إبداع فنّ جديد، وأنّ كل ما يبدعه المسلم فهو مقتبس من ثقافات أُخرى، بل ربّما إلى التشكيك في أصل القرآن الكريم والأحاديث النبوية حيث تشتمل على مثل هذه التقسيمات

والتعريفات، وأنّ عصرها عصر بداوة لا يمكن أن تظهر فيه تلك التقسيمات إلى غيرها من أهداف جهنّمية، لا يستهدفون منها التشكيك بالتشيّع فحسب،بل بالإسلام كلّه.

٢ـ بدائية النحو:

نحن نعلم أنّ بداية كل علم أو فكرة تبدأ بهذه الصورة البدائية والتي تتّجه للكلّيات والمسائل العامة كتقسيم الكلمة مثلاً، ثمّ تتوسّع وتتفرّع لتتضمّن المسائل الجزئية والتفريعات والأبواب والفصول، كما صرّح بهذه الحقيقة الدجيلي فيما نقلناه عنه سابقاً[٤٩]، وهذه الحقيقة يقرّ بها أحمد أمين في بداية كتابه «ضحى الإسلام» فهو يقول حول العصر الإسلامي الأول: «ورأينا المسائل تبحث بنظر أدقّ»[٥٠]، وهو يعترف بالتفاوت الفكري بين الإنسان الجاهلي والإسلامي، ويعترف بانتقال العلوم النقلية ـمن علوم دينية ولغويةـ إلى العصر العبّاسي، أي أنّها كانت موجودة ولو بصورة بدائية، أي بشكل «مسائل جزئية مبعثرة»[٥١]، وهو يعترف «بأنّ هناك عوامل شخصية أثّرت في العلم لولم تحدث لأخّرت مسير العلم بعض الزمن»[٥٢] ويقصد من ذلك الحاجة، ونفسّرها نحن بالحاجة الدينية. إذاً فكل هذه الأسباب والدوافع والمسائل يعترف بها أحمد أمين، ثمّ ينكر وجود النحو ولو بصورته البدائية التي استدعت ظهوره الحاجة الملحّة، والتي كانت ـتلك الصورة البدائيةـ على شكل كلّيات ومسائل عامة، وربّما غائمة في بعض مسائلها وليست عميقة الفكرة وليس داخلها أبواب وفصول وتفريعات كما نراها اليوم.

وعندما نقول بالصورة البدائية فإنّنا نعني تلك المجالات التي استدعت وجودها الحاجة، فوضع أبو الأسود بعض المسائل والأبواب النحوية بعد ما رأى أنّ

---

(٤٩) مقدّمة ديوان أبي الأسود: ٦٦.

(٥٠) ضحى الإسلام ٢/....

(٥١) ضحى الإسلام ٢/....

(٥٢) ضحى الإسلام ٢/....

الحاجة تدور حول هذا الباب أو ذاك ، وبمقدار مايملكه من ثقافة و وعي و إبداع في خلق النواة الأُولى لعلم النحو «فلم يقل أحد أنّها وضعت في أول الأمر كاملة على الوجه الذي نراه في كتب العربية اليوم، وانّما قيل إنّه وضع بابي المفعول و الفاعل أو باب التعجّب أو أنّ و أخواتها.. إلى آخره، فهو لم يضع النحو كاملاً، وإنّما وضع فكرة أبواب استدعتها الظروف ولا بُدّ أنّ هذه الأبواب التي وضعها وضعت بطريقة عامة مبسّطة ليس فيها من الدقّة والتفريع ما نراه اليوم في كتب القواعد، فالاعتراض إذاً غير قائم لأنّ أحداً لم يقل به»[٥٣]. ولعلّ ما يؤيّد ذلك ، وضع أبي الأسود لفكرة (التعجّب) فإنّه واجه حالة حفّزته على البحث عن هذه الظاهرة بعد أن وجد وقوع اللحن في مجال التعجّب خاصة على لسان ابنته حين سألته: «ما أشدُّ الحرّ» فظنّها تسأل، وهي في الواقع تريد التعجّب، فهذا المثال ـ والشكّ حوله ـ حفّز أبا الأسود على متابعة هذه الظاهرة، حتى وصل أخيرا إلى وضع فكرة بدائية عامة عن التعجّب ـ كما ينقل عنه ـ مهّدت الطريق لمن يأتي بعده ليواصل البحث عنها وعن سائر المسائل.

إذاً، فالنحو الذي وضعه أبو الأسود كان بدائياً بسيطاً، كما هو الحال في بدايات مختلف العلوم والأفكار، وإلّا لتوجّه الاعتراض لكل العلوم أنّها كيف ولدت في أذهان مخترعيها؟!

تقييم أبي الأسود

١ـ شخصية أبي الأسود الثقافية:

ونحن لو درسنا شخصية أبي الأسود ـ لأنّ شخصية الإمام (عليه السلام) فوق البرهان ـ لرأيناه باعتراف المؤرّخين والنحاة يملك ثقافة واسعة في مجالي اللغة والفكر، حيث كان مطلّعاً على لهجات العرب ولغتها وغريبها وأدبها وكان شاعراً غير مكثر، وكان يدرّس العربية في البصرة، حيث انصرف إليه بعض

---

(٥٣) مدرسة البصرة النحوية: ٥٥.

طلّاب العربيـة الّذين واصلوا بعده مسيره في تطويـر القواعد اللـغوية والنـحوية والأدبية، وكان يكلّفه بعض الأُمراء بتعليم أبنائهم، وكان المفزع لهم في معالجة المشاكـل اللغوية والـنحوية والثقافيـة، وقد تعرّضنا إلى مجالات ثقافية في ترجمة حيـاتـه، لذلـك نكـتفي الآن بهـذه الخطوط الـعـريضة، فالجـاحظ مـثلاً يقـول: «أبو الأسود معـدود في طـبـقات من النـاس وهـو في كلّها مـقـدّم مأثور عنـه الـفضل في جميـعـها، كـان مـعـدوداً في التـابـعين والفـقـهـاء والشعـراء والمحـدّثين والأشراف والفرسان والأُمراء والدهاة والنحويّين والحاضري الجواب والشيعة»[٥٤].

فكان يملـك مـواهب ثقـافية واجـتـماعيـة مختلفة، فمثل هـذا الشخص الفذّ الذي يملـك مثـل هـذه المواهب ألا يحتـمـل أنّه وضع بدايـات الـنحو بعـد أن مـهّد الإمام ـعليه السلامـ له الطـريق، وفتح عينه على هـذا الموضوع، وقد أجمع المؤرّخون على أنّه أول من حرّك المصحف الشريف بواسطة التنقيط، وفي هذه العملية دلالة كـبيرة على معرفـتـه الواسعة باللـغـة العربية وحركـات الإعراب وعلى ما يملكه من عمق في التفكير وثقافة لغوية، بل تدلّ على توجّهه للقواعد النحوية.

ويتوصّل عـبـدالرحمن السيّد إلى الـنتيجة الـتالية فيـقول: «كما لا يستطـيع أحد أن يدّعـي أنّ عالمـاً مشهوداً لـه بالـتقدّم والتفـوّق مقصوداً من الخلـفاء والولاة لرسوخ قدمه في العلم وحدّة ذكائه في الفهم ينقّط المصحف كلمة كلمة، ويلاحظ حركات حروفه حـرفاً حرفاً، ويفـعل ذلـك في دقّة وبراعة ثـمّ يخرج من عمله هذا دون أن تـتكـوّن لدية فـكـرة أولـيةعنعـمل بـعض الأدوات أو عن حـركـة بعض الكلمات ذات الوظيـفةِ المتشابهة والوضع المـتّحد، اللّهمّ إلّا أن يكـون راسخ القدم في الغباء بعيداً عن صفات أبي الأسود»[٥٥].

ونحن نضيف إلى قوله: إنّ من يخوض هذه المهمّة ويتكفّل بالقيام بها لا بُدّ أن يملـك مسبقاً توجّهاً وفهماً لبعض المسائل والقواعد النحوية.

---

(٥٤) نقلاً عن مقدّمة ديوان أبي الأسود ـللدجيليـ: ١٣.

(٥٥) مدرسة البصرة النحوية: ٦٠.

وسوف نبحث في فصل لاحق هذه القضية ـ قضية تحريك أبي الأسود للمصحف الشريف ـ لنبحث عن كيفيّتها وطريقتها ودوافعها، وأنّها تشابه من قريب أو بعيد وضعه للنحو، وأنّ القادر على القيام بهذه المهمّة قادر على وضع الجذور الأساسية والبدائية للنحو.

٢ـ كتاب أبي الأسود:

فهناك رواية شائعة على ألسنة المؤرّخين والنحاة، وهي أنّه كان لأبي الأسود كتاب في النحو واسمه «التعليقة» إلّا أنّه ضاع واختفى كما اختفى غيره من الكتب، وكما اختفى كتابا عيسى بن عمر، اللذان اشتهرا على ألسنة النحاة أيضاً، قال أبي قتيبة في كتابه الشعر والشعراء: «أول من عمل كتاباً في النحو بعد علي بن أبي طالب»[٥٦] أي أبو الأسود، وقال السيوطي: «قال ابن عساكر في تاريخه: كان أبو إسحاق إبراهيم بن عقيل النحوي الدمشقي المعروف بابن المكبري يذكر أنّ عنده تعليقة أبي الأسود التي ألقاها إليه علي بن أبي طالب»[٥٧] وقد أكدّ وجود هذه التعليقة، ابن النديم في فهرسته وأتى بكثير من القرائن والشواهد التاريخية على ذلك[٥٨].

إذاً فهذا الكتاب قد رآه ابن النديم، وهو خبير وثقة في الكتب كما صرّح بذلك المؤرّخون، ويذكر السيد الأمين في أعيان الشيعة نقلاً عن ابن النديم في فهرسته قوله: «رأيت ما يدلّ على أنّ النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته، وهي أربع أوراق أحسبها من ورق الصين، ترجمتها هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود ـ رحمة الله عليه ـ بخطّ يحيى بن يعمر، وتحت هذا الخطّ بخطّ عتيق: هذا خطّ علّان النحوي، وتحته: هذا خطّ النضر بن شميل»[٥٩]، وكذلك ينقل

---

(٥٦) الشعر والشعراء.

(٥٧) الأشباه والنظائر ٧/١.

(٥٨) الفهرست: ٦١.

(٥٩) أعيان الشيعة ١٦٣/١.

السيد الأمين عن القفطي أنّه رأى ما يدلّ على وجود هذا الكتاب بخطّ أبي الأسود نفسه.

وهكذا نرى أنّ المؤرّخين، وخبراء الكتب والتراجم، يذكرون كتاباً في النحو وضعه أبو الأسود بتعليم وتوجيه من الإمام -عليه السلام-، ولكنّ اختفائه لا ينفي وجوده، كما اختفت الكثير من الكتب.

٣- تلاميذ أبي الاسود:

يحدّثنا التاريخ أنّ هناك تلاميذ لأبي الأسود درسوا على يديه (النحو) وقد ذكر المعارضون من المعاصرين أيضاً وجود النحو عندهم، وهم الّذين اعتبرهم النحاة طبقة نحوية ثانية بعد أبي الأسود في سلسلة طبقات علماء النحو، والّذين عبّر عنهم عيسى بن عمر والخليل وسيبويه نفسه -في كتابه- بـ (البادئين الأولين).

والمعروف من تلاميذه: يحيى بن يعمر، وعنبسة الفيل، وميمون الأقرن، وعطاء ابن أبي الأسود، وأبو حرب ابن أبي الأسود، ونصر بن عاصم، وعبد الرحمن بن هرمز؛ ولو راجعنا كتب التراجم والتاريخ لرأينا أنّها تصرّح بأنّ هناك تلاميذ لأبي الأسود درسوا على يديه النحو والعربية، كما أنّنا نلاحظ أنّهم حينما يتعرّضون لترجمة هؤلاء يذكرون أنّهم كانوا من النحاة وأنّهم تعلّموا النحو من أبي الأسود.

فإذا قلنا بأنّ طبيعة المرحلة البدائية التي عاشها الإمام -عليه السلام- وأبو الأسود تمنع مثل هذه النسبة -نسبة النحو- لأنّهم عاشوا قبل الارتباط الثقافي مع الثقافات الأجنبية، وقبل نضج الفكر والتطوّر الثقافي للمسلمين، فكذلك يصحّ لنا أن نقول مثل هذا القول في الطبقة التالية لهما أيضاً، إذ أنّهم عاشوا في فترة زمنية متقاربة لتلك الفترة، أي أنّهم عاشوا نفس المناخ الفكري والثقافي، إذاً فلماذا ننسبه إلى الطبقة الثانية دون الأُولى مع أنّهم يعيشون مناخاً ثقافياً وحضارياً متشابهاً؟!

٤ـ وجود النحو في تلك الفترة:

هناك بعض الأخبار المتناثرة هنا وهناك في كتب التاريخ والأدب والترجمة حين تؤرّخ فترة العصر الأُموي، بل حتى قبله، وتذكر الخلفاء والولاة أو رجال العصر الأُموي تؤكّد وجود النحو آنذاك، فيذكر «إنّه كان من أعظم المصائب في نفس عبدالملك أنّ ابنه الوليد كان لحّانة وأنّه أخذه بتعلّم العربية فلم يفلح»[٦٠].

ويذكر أنّ الدافع الذي دفع عبدالعزيز بن مروان إلى الاهتمام بالعربية ما رواه ابن عساكر قبل هذا الخبر أنّه دخل على عبدالعزيز رجل يشكو صهراً له فقال: «إنّ ختني فعل بي كذا وكذا» فقال له عبدالعزيز: «مَن ختنك؟» فقال له: «ختنني الختّان الذي يختن الناس» فقال عبدالعزيز لكاتبه: «ويحك، بم أجابني؟» فقال له: أيّها الأمير إنّك لحنت ـ وهو لا يعرف اللحن ـ وكان ينبغي أن تقول: ومن ختنك؟ فقال عبدالعزيز: أراني أتكلّم بكلام لا يعرفه العرب، لا شاهدت الناس حتى أعرف اللحن، فأقام في البيت جمعة لا يظهر ومعه من يعلّمه العربية فصلّى بالناس الجمعة، وهو من أفصح الناس[٦١].

وفي «سفينة البحار» في لفظة (النحو) نقلاً عن كتاب الجواهر للكراجكي: «قال أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ: العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطبّ للأبدان، والنحو للّسان، والنجوم لمعرفة الأزمان»[٦٢].

فهذه الروايات والأخبار وأمثالها تدلّ على توجّه أبناء العصور الإسلامية الأُولى للّحن وللنحو وقواعد العربية، وتدلّ على وجود النحو والعربية في عصر أبي الأسود أو العصر المقارب له، وقبل الاتّصال بالثقافة اليونانية وقبل تطوّر العقلية

---

(٦٠) تاريخ النحو: ١٣.

(٦١) تاريخ النحو: ١٤.

(٦٢) سفينة البحار ٢/٥٨١.

العربية ونضجها في العصر العبّاسي كما ادّعاه البعض.

إذاً فأُولئك الّذين ينسبون وضع النحو إلى أفراد مقاربين لعصر الإمام -عليه السلام- وأبي الأسود لماذا يحاولون -وبمختلف الأساليب والمظاهر- التهرّب عن نسبته للإمام -عليه السلام- أو لأبي الأسود، أو التشكيك فيها وتكذيبها؟! ولعلّ هناك نوايا سوداء في بعض النفوس المريضة وراء محاولتها التشكيك أو الاعتراض أو التكتّم على هذه النسبة.

مع الاعتراض الثاني

النحو العربي والثقافات الأجنبية:

المعارضون يعترضون على أصالة النحو العربي ويعتقدون بأنّ النحو العربي قد اكتسبه الواضع من النحو اليوناني وأنّه لم يتمّ مثل هذا الاتّصال إلّا في مرحلة زمنية متأخّرة عن تلك المرحلة التي عاشها أبو الأسود، فقد ذهب رينو «إلى تأثّر النحو العربي بمنطق أرسطو، كما ذهب إلى هذا غير واحد من المستشرقين»[٦٣].

ولكن يمكن توجيه عدّة مناقشات لهذا الاعتراض:

١- إنّ مرحلة وضع النحو العربي متقدّمة زمنياً على مرحلة الاتّصال بالثقافة اليونانية، والملاحظ أنّ بعض المعارضين حينما يبحثون حول جذور النحو العربي نراهم ينتهون إلى عبدالله بن إسحاق -المتوفى سنة ١١٧ هـ- والذي تتلمذ على يد تلامذة أبي الأسود، وعاش في زمن سابق على زمن الاتّصال الثقافي والتلاقح الحضاري بين المسلمين واليونان، إذ أنّ العرب تعرّفوا على الثقافة اليونانية بعد ترجمتها إلى اللغة العربية، وقد بدأت حركة الترجمة في العصر العبّاسي، وكما ذكرنا في البحث السابق وجود النحو خلال العصر الأُموي، ومن هنا ندرك أنّ النحو العربي كان موجوداً قبل حركة الترجمة، وقبل العصر العبّاسي، أي قبل

---

(٦٣) الدكتور إبراهيم السامرّائي، دراسات في اللغة: ٢٠٦.

زمن الاتّصال الثقافي.

٢ـ اختلاف طبيعة النحو العربي عن النحو اليوناني، يقول الدكتور إبراهيم السامرّائي في مجال عدم تأثّر النحو العربي بالنحو اليوناني: «... ولقد فاته أنّ اليونانية تختلف نحواً وطبيعة عن العربية، ولم يكن واضع النحو عارفاً أو متأثّراً باليونانية بأيّ وجه من الوجوه»[٦٤] وفيه إشارة لكلا المناقشتين، كما أشار إليهما أيضاً فؤاد حنّا ترزي في بحثه عن «اللغة» التي اكتسب العرب منها نحوهم: «ومن الواضح أنّ هذه اللغة لا يمكن أن تكون السنسكريتية الهندية أو الفارسية لاختلاف نحوهما عن نحو العربية لعدم انتمائها إلى الفصيلة السامية، كما لا يمكن أن تكون اليونانية للسبب ذاته، ولأنّ وضع النحو العربي أسبق في الزمن من احتكاك العرب الوثيق بعلوم اليونان وفلسفتهم»[٦٥].

ونحن نلاحظ أنّ القائلين بتأثّر النحو العربي بالنحو اليوناني إمّا بصورة مباشرة أو بوساطة النحو السرياني، على اعتبار أنّ النحو السرياني قد اكتسب نحوه من النحو اليوناني، والنحو العربي قد اكتسب نحوه من السريانية، فهو بالتالي قد اكتسب نحوه من النحو اليوناني، فهذه الفكرة نتيجة تقليد هؤلاء المحدثين للمستشرقين في أقوالهم، فإلى مثل هذا الرأي ذهب دي بور[٦٦].

وفكرة الاكتساب لم يكن لها عند القدماء أثر، وإنّما ابتدعها المستشرقون واتّبعهم بعض المحدثين من العرب، وخاصة الكُتّاب المصريّين كما يقول إبراهيم السامرّائي[٦٧]، ولعلّ هذا الرأي جزء من تلك الحملة المسعورة التي شنّها الغرب على الساميّة، والتي كان من أقطابها رينان، ولعلّ هدفها الرئيس هو الإسلام «فقد ذهب هؤلاء إلى أنّ العقلية العربية الإسلامية قد تأثّرت في صورها المختلفة بالعقلية الإغريقية، وأول من أطلق هذه الأحكام هم المستشرقون، ومن بين هؤلاء

---

(٦٤) دراسات في اللغة: ١٣.

(٦٥) في أُصول اللغة والنحو: ١١٠.

(٦٦) دراسات في اللغة: ١٤.

(٦٧) دراسات في اللغة: ١٤.

من لم يتّصف بالعدل والقصد، فما أمر رينان الفرنسي في القرن الماضي ببعيد، فقد ذهب إلى أنّ العرب أو قل: إنّ العقلية الساميّة لا ترقى إلى غيرها من العقليات كالإغريقية والرومانية، ومن أجل هذا كان هؤلاء عيالاً على غيرهم من الشعوب في حضارتهم، وقد أسرف هذا الفرنسي المسيحي المتعصّب لأكثر من غرض واحد، ولسنا بصدد بيان هذا، وقد ذهب غيره هذا المذهب دون أن يلتزم بعنفه وشدّته، ولا أُريد أن أدفع عن ثقافتنا تأثير الإغريق فما إلى ذلك قصدت وأنا إن فعلت ذلك فقد جُرْت على الحقيقة كما جار النفر الآخر»[٦٨].

إنّ لهذه الحملة المسعورة على السامية ـ أسبابها وأهدافها وأساليبها ـ لسنا في مجال البحث عنها فللحديث عنها مجال آخر، ومن هنا ذهب هؤلاء إلى تأثّر النحو العربي بالنحو اليوناني إمّا بصورة مباشرة أو بوساطة النحو السرياني، ولم يقولوا بتأثّره بالنحو السرياني فحسب، لأنّ السريان ساميّون أيضاً، بينما اليونان غير ساميّين، وهم لا يريدون الاعتراف بالساميّين.

ولكن نقول: بأنّ النحو العربي لم يتأثّر بالنحو اليوناني بصورة مباشرة لما ذكرناه، وكذلك لم يتأثّر بالنحو السرياني كما سنبحثه، فينهار أساس التأثّر بالنحو اليوناني.

وقد ذهب بعض المعاصرين إلى أنّ النحو العربي قد اكتسبه العرب من النحو السرياني المشابه في كثير من أُصوله وأحكامه للنحو العربي، على اعتبار اشتراكهما في الساميّة، ولأنّ الاتّصال بين العرب والسريان قد تمّ قبل الاتّصال بين العرب واليونان، فلا بُدّ أن يتعرّف العرب على ثقافة السريان ومنها النحو، وذلك لأنّ النحو السرياني قد وضع قبل وضع النحو العربي كما يقول جرجي زيدان: «إنّ السريان دوّنوا نحوهم وألّفوا فيه الكتب في أواسط القرن الخامس الميلادي، وأول من باشر ذلك منهم الأُسقف يعقوب الرهاوي الملقّب بمفسّر

---

(٦٨) دراسات في اللغة: ٢٠٢.

الكتب، المتوفى سنة ٦٤٠م»[٦٩].

ولا يحتمل اكتساب النحو العربي من النحو العبري، لأنّ النحو العبري لم يدوَّن إلّا في القرن العاشر الميلادي، أي بعد تدوين النحو العربي[٧٠].

ولا يهمّنا في هذا المجال الحديث حول النحو السرياني، وهل هو مكتسَب من النحو اليوناني ـ كما يصرّح بذلك الكثير من الباحثين ـ وخاصة أنّ الاتّصال الثقافي بين اليونان والسريان كان وثيقاً، فانتقل على أثر ذلك الكثير من الأفكار الفلسفية والنحوية إليهم، وإنما نستهدف هنا البحث حول مدى تأثّر النحو العربي بالنحو السرياني.

فمن الباحثين الّذين يؤمنون بتأثّر النحو العربي ـ في بدايته ـ بالنحو السرياني أحمد حسن الزيّات حيث يقول: «والغالب في ظنّنا أنّ أبا الأسود لم يضع النحو والنقط من ذات نفسه وإنشائه وإنّما نظنّ أنّه ألَمّ بالسريانية ـ وقد وضع نحوها قبل نحو العربية ـ أو اتّصل بقساوسها وأحبارها فساعده ذلك على وضع ما وضع»[٧١] وإلى هذا الرأي ذهب إبراهيم مدكور[٧٢] وجرجي زيدان[٧٣] وفؤاد حنّا ترزي[٧٤] وغيرهم، وكذلك بعض المستشرقين، وينقل فؤاد حنّا ترزي تأكيداً لرأيه هذا، حديثاً عن العلماء السريان الّذين عاصروا بدايات الحركة الثقافية الإسلامية: «والأُسقف سوبرس سيبوخت، المتوفى عام ٦٦٦م، وقد كان يتقن اليونانية ونقل بعض كتبها في الفلسفة والمنطق، كما عُني بالصرف والنحو السريانيّين، وشجّع التعاون الثقافي بين المسلمين والسريان»[٧٥].

---

(٦٩) تاريخ آداب اللغة العربية ٢٥١/١.

(٧٠) في أُصول اللغة والنحو: ١١٠.

(٧١) تاريخ الأدب العربي: ١٥٤.

(٧٢) مجلّة مجمع اللغة العربية ٣٣٨/٩.

(٧٣) تاريخ آداب اللغة العربية: ٢٥١.

(٧٤) في أُصول اللغة والنحو: ١١٠.

(٧٥) في أُصول اللغة والنحو: ١١٠.

أصالة النحو العربي

١ـ القائلون بالأصالة:

وهذا الرأي الذي يذهب إلى اكتساب النحو العربي عارضه بعض المعاصرين الّذين ذهبوا إلى أصالة النحو العربي ابتداءاً وإنْ تأثّر في بعض مجالاته ـ بعد ذلك ـ بالثقافات الأجنبية، فلم يتأثّر لا بالنحو الإغريقي واليوناني مباشرة، ولا بوساطة النحو السرياني.

يقول السامرّائي: «والقول بهذا التأثّر نتيجة تقليد هؤلاء المحدثين للمستشرقين في أقوالهم»[٧٦].

ويذهب لذلك الطنطاوي فيقول: «نشأ النحو في العراق في صدر الإسلام، ولأسبابه نشأة عربية على مقتضى الفطرة، ثم تدرّج به التطوّر تمشّياً مع سُنّة الترقّي حتى كملت أبوابه غير مقتبس من لغة أُخرى لا في نشأته ولا في تدرّجه»[٧٧].

ويذهب إلى هذا الرأي بعض المستشرقين، فيقول ليتمان: «ونحن نذهب في هذه المسألة مذهباً وسطاً، وهو أنّه أبدع العرب علم النحو ابتداءاً..»[٧٨].

وهبو تولد فايل يقول: «حفظت لنا الرواية العربية في مجموعات مختلفة من كتب التراجم وصفاً لمسلك نموّ هذا العلم الذي هو أجدر العلوم أن يعدّ عربياً محضاً»[٧٩].

ويذكر بروكلمان: «إنّ علماء العرب يردّدون دائماً الرأي القائل: بأنّ النحو العربي صدر عن روح عربية خالصة، ويرى أنّه ليس من الممكن إبداء رأي

---

(٧٦) دراسات في اللغة: ١٣.

(٧٧) نشأة النحو: ١٤.

(٧٨) نقلاً عن نشأة النحو: ١٥.

(٧٩) نقلاً عن مدرسة النحو البصرية: ١٠٤.

موثوق به عن المسألة مسألة اتّصال علماء اللغة الأُول بنماذج أجنبية نسجوا على منوالها، ويذكر رأي برونيش القائل بأنّ تأثير الأجانب في علم اللغة العربية ـ النحو العربي ـ لم يحدث إلّا ابتداءاً من سيبويه الفارسي في حين أنّ أُستاذه الخليل كان عربياً خالصاً»[٨٠].

وبذلك نرى أنّ بعض المستشرقين منصفون في آرائهم واحكامهم، ولكن لا يعني ذلك أن ننظر للجميع تلك النظرة الأمينة والصادقة، بل حتى الباحثين المنصفين منهم والّذين يحاولون معالجة القضايا الإسلامية معالجة منصفة وموضوعية فإنهم أحياناً يتوصّلون إلى آراء غير سليمة، لأنّهم لم يعيشوا الروح والمشاعر الإسلامية والأجواء التراثية والثقافية التي يعيشها الإنسان المسلم وهذا لا يمنع أن تكون لهم آراء صائبة في بعض المجالات.

٢ـ فرضيّة الاكتساب:

الملاحظ أنّ الرأي الذي يذهب إلى أنّ أبا الأسود قد تأثّر بالثقافة السريانية يعتمد على الفرض فحسب، إذ ليست هناك أيّة رواية، أو أيّ سندٍ تاريخي، أو رأي من القدماء يثبت لنا هذا التأثّر بصورة موثوقة، فلم يتعرّض له حتى واحد من القدماء الّذين ذكروا بأنّ أبا الأسود وضع النحو العربي، بالرغم من أنّ المعروف عن علمائنا القدامى تتبّعهم وتحقيقهم في البحث عن المسائل العلمية والثقافية، وقد ذكروا تأثّر المسلمين باليونان أو غيرهم في بعض العلوم أمثال المنطق والفلسفة، ولم يذكروا مثل ذلك عن بدايات علم النحو.

ولكن في المقابل هناك الكثير من الروايات المتواترة والآراء العديدة وإجماع القدامى على وضع أبي الأسود للنحو بتوجيه من الإمام ـ عليه السلام ـ، حيث تؤكّد ـ بل تستدل ـ على أصالة وضعه وعدم تأثّر أبي الأسود في ذلك بالثقافات الأُخرى كما يقول كمال إبراهيم: «لم يثبت تاريخياً أنّ أبا الأسود أو

---

(٨٠) نقلاً عن مدرسة النحو البصرية: ١٠٤.

غيره ممّن عمل في وضع قواعد لغة العرب من بعده كان يعرف اليونانية، أو أنّه اختلط بالسريان، أو عرف السريانية وأخذ النحو أو شيئاً من هذه اللغة منها، ومؤرخو السِيَر العرب لم يتركوا شيئاً من تفاصيل حياة أبي الأسود إلّا ذكروه، وكذلك الأمر بالنسبة لمن سواه، ولو أنّ أحداً منهم وقع له شيء من هذا القبيل لما فات واحداً على الأقل من مؤرّخي تلك السِيَر»[٨١].

فهم بالرغم من قرب عهدهم من أبي الأسود، وتتبّعهم في مثل هذه القضايا، وأمانتهم ووثاقتهم في النقل، لم يتعرّضوا من قريب ولا بعيد لتأثّر أبي الأسود ـ أو غيره من واضعي النحو العربي ـ بالثقافات الأجنبية ثمّ يظهر بعد أجيال طويلة من يتبنّى هذا الرأي، فهل عثر على شيء جديد كان قد خفي على علمائنا المعاصرين وغير المعاصرين لأبي الأسود؟! إذاً فلا يعدو هذا الرأي أن يكون فرضية لا تعتمد على سند تاريخي.

٣ـ طبيعة التشابه:

بالإضافة إلى فرضية الرأي القائل باكتساب النحو العربي فإنّنا قد رأينا سابقاً مدى الحاجة الملحّة لحفظ القرآن الكريم من الضياع والغموض، وبدافع من تلك الحاجة والضرورة الدينية كان لا بُدّ من التفكير في وضع النحو «ووجود تشابه في شيء من النحو بين لغة ولغة لا يدلّ بالضرورة على أنّ نحو هذه قد أُخذ من نحو تلك ولا سيما بين اللغات الناشئة في منطقة جغرافية واحدة أو مناطق متقاربة ذات احتكاك بينها»[٨٢].

أمّا «التشابه بين العربية من جهة والسريانية والعبرية من جهة أُخرى فهو أمر طبيعي، ذلك لأنّ هذه اللغات الثلاث من فروع لغة واحدة هي اللغة الساميّة الأصلية، ولا ريب أنّ ما ورثته كل لغة هو عين ما ورثته الأُخرى من

---

(٨١) مجلّة البلاغ، واضع النحو الأول، ج ٩ ص ٢٦.

(٨٢) مجلّة البلاغ، واضع النحو الأول العدد ٩، ص ٢٥.

اللغة الأُمّ، والتوافق كثير بين كل لغة وأُختها»[٨٣].

ونرى هذا التوافق بينهما ليس في مجال النحو فحسب، بل يشمل الكثير من المجالات اللغوية، وهذا ناشئ من تشابه اللغتين في الأُصول وفي كثير من الملامح، لأنّهما من منبع واحد هو اللغة السامية.

إذاً «فالقواعد التي تستنبط من كل لغة تأتي متشابهة إلى حدّ كبير وقواعد اللغة الأُخرى، وهذا لا يعني أنّ نحو هذه أُخذ من نحو تلك، بل لأنّ الطبيعة اللغوية قد فرضت ذلك»[٨٤] ونرى ذلك جليّاً في مجال التشابه في تقسيم الكلمة إلى ثلاثة أقسام في أكثر اللغات، لأنّ طبيعة الألفاظ البشرية تقتضي ذلك، وما دام الأمر كذلك فلا ضرورة للاكتساب ما دام هذا التوافق في الطبيعة اللغوية موجوداً، ويكفي الفرد المثقّف الواعي إلقاء نظرة واعية نافذة إلى لغته ليبصر ويكتشف أمثال هذه الأقسام أو غيرها من الأبواب اللغوية، فليس النحو علماً خرج من العدم، وإنّما هو قواعد موجودة في اللغة يعتمد اكتشافها على الاستقراء، وقوّة الملاحظة، وعمق في التفكير والوعي، ومعرفة واسعة في اللغة، وخاصة لو وجد الدافع الذي يحرّك هذا التطلّع في الإنسان ويثيره للبحث عنها، وقد توفّرت كل هذه العناصر في أبي الأسود.

٤ـ مدى تأثير الثقافات الأجنبية:

ولكنّ القول بأصالة النحو العربي أصالة عامة شاملة في بداياته وفي مراحل تطوّره وتوسّعه وفي كل أبوابه وتفريعاته ومسائله لا يصحّ القول به أيضاً، إذ نتيجة لمرور الزمن وسعة وشدّة اتّصال العرب بالأجانب واختلاطهم بهم والتلاقح الثقافي بينهم والانبهار والتأثّر الشديد بالفلسفة والمنطق وبعض العلوم الوافدة من الثقافات الأُخرى دخلت للنحو مسائل وعناصر جديدة وغريبة عن

---

(٨٣) مجلّة البلاغ، واضع النحو الأول العدد ٩، ص ٢٦.

(٨٤) مجلّة البلاغ، واضع النحو الأول العدد ٩، ص ٢٧.

وجهه وأصالته، كما تأثّرت سائر العلوم الإسلامية بمثل هذه الثقافات الوافدة بالرغم من أصالتها في بداياتها «فالعرب تأثّروا بها -أي بالفلسفة والمنطق اليونانيّين- في تنظيم النحو وتهذيبه، وفي بعض مصطلحاته وأساليبه، وفي طريق الحِجاج والمناقشة فيه، وهناك فرق بين نقل النحو عنهم أو تقليدهم والتأسّي بهم في إبداعه وإنشائه، وبين الإفادة من هذا المنطق في طريقة البحث فيه والاستدلال عليه وفي استعارة بعض مصطلحاته أو السير على نهجه وأُسلوبه»[٨٥] وهذا الرأي الذي يذهب إلى تأثّر النحو العربي في مراحل تطوّره بالثقافات الأجنبية قد اعترف به حتى بعض النحاة والمؤرّخين القدامى، لا في بدايات نشأته .

ومن هنا ظهرت حركة عند بعض القدامى والمعاصرين من النحاة في تهذيب النحو وتجريده من العناصر الدخيلة فيه والمسائل المتأثّرة بالفلسفة والمنطق وإعادته إلى وجهه الأصيل، ممّا يدلّ على وجود قواعد ومسائل أصيلة في النحو غير متأثّرة بالثقافات المستوردة والأجنبية.

مرحلة الوضع الزمنية:

وقد نسلّم للمعارضين ونقول بأنّ النحو العربي ليس أصيلاً في وضعه، بل هو مكتسب، وقد اكتسب من الثقافات الأجنبية.

وحتى على هذا الفرض، فإنّ مرحلة وضع النحو العربي لا تتأخّر عن عصر الإمام -عليه السلام-، ولا ينهار الرأي الذي يذهب إلى وضع الإمام -عليه السلام- وأبي الأسود للنحو العربي وذلك:

١- تأثير الثقافة اليونانية: قلنا إنّه لا يمكن أن يكون الاكتساب من الثقافة اليونانية، وذلك لأنّنا ذكرنا أنّه لا يمكن أن يكون الاكتساب من هذه الحضارة لأنّ اتّصال المسلمين بها قد حدث في فترة متأخّرة، والنحو العربي كان موجوداً

---

(٨٥) مدرسة البصرة النحوية: ١٠١.

قبل زمن الاتّصال وقبل نقل الكتب اليونانية وترجمتها، فسيبويه والخليل وعيسى ابن عمر ينقلون عن نحاة قبلهم يعبّرون عنهم بـ «البادئين الأولين».

٢ـ تأثير الثقافة السريانية: إذاً فلا بُدّ أن يكون الاكتساب من غير الحضارة الإغريقية المتأخر وفودها للبلاد الإسلامية، وكما يذهب إليه بعض المعاصرين أنّ النحو العربي متأثّر بالنحو السرياني، فالسريانيّون دخلوا الإسلام في خلافة عمر وخالطوا المسلمين مخالطة وثيقة آنذاك ـ وخصوصاً في العراق ـ، «ولم يكن العلماء السريان هم السبيل الوحيد لهذا التأثّر، بل اشترك معهم وربّما بزّهم أُولئك الموالي من السريان الّذين استعربوا وأسهموا في الدراسات النحوية والعربية إسهاماً مباشراً»[٨٦].

وكما مرّ أنّ (سيبوخت) قد شجّع التعاون الثقافي بين المسلمين والسريان، فمثل هذا الاتّصال الثقافي الوطيد بين العرب والسريان منذ صدر الإسلام يفرض أن يطّلع المسلمون على التجارب الفكرية والثقافية ـ ومنها النحو ـ لدى السريان، ومن هنا تنشأ فكرة احتمال اكتساب النحو في بدايته من السريان، ونحن قد ناقشنا هذا الاحتمال.

٣ـ ولكن هذا الاحتمال ـ على تقدير تسليمه ـ لا يؤخّر زمن الوضع عن تلك الفترة التي حدّدناها ـ أي زمن الإمام (عليه السلام) ـ إذ ليس هناك أي ضرورة للتأخير مادام السريان كانوا منتشرين منذ خلافة عمر في الأوساط الإسلامية، ففي خلال هذه المدّة إلى زمان خلافة الإمام ـ عليه السلام ـ ألا يحتمل أن تعرّف المسلمون على الثقافة السريانية ومنها النحو؟

يقول العقّاد في هذا المجال: «ولكنّ الروايات العربية لا تنتهي إلى مصدر أرجح من هذا المصدر، وغيرها من الروايات الأجنبية والفروض العلمية لا تمنع عقلاً أنّ يكون الإمام ـ عليه السلام ـ أول من استنبط الأُصول الأُولى لعلم النحو العربي من مذاكرة العلماء بهذه الأُصول بين أبناء الأُمم التي تغشى الكوفة وحواضر

---

(٨٦) فؤاد حنّا ترزي، في أُصول اللغة والنحو: ١١١.

العراق والشام وهم هناك غير قليل، ولا سيما السريان الّذين سبقوا إلى تدوين نحوهم، وفيه مشابهة كبيرة لنحو اللغة العربية»[٨٧].

فإذا كان يمكن الاتّصال بالسريانيّين في عصر الإمام ـعليه السلامـ وأبي الأسود فلا يتأخّر التدوين عن تلك الفترة على تقدير اكتساب أبي الأسود النحو منهم.

٤ـ بل يمكن لنا القول: إنّ النحو السرياني مكتسب من النحو العربي، فقد ذكر المؤرّخون أنّ يعقوب الرهاوي هو أول من وضع النحو السرياني ودوّنه «فهو أول من باشر وضع هذه القواعد للسريانيّين»[٨٨] وقد ذكر جرجي زيدان أنّ يعقوب الرهاوي قد توفي سنة ٦٤٠، ولكنّ هذا غير صحيح، إذ ذكر عبدالحميد حسن نقلاً عن «اللمعة الشهية» أنّه توفي سنة ٧٠٨، كما ذكر ذلك أيضاً دي پور وأحمد أمين وفؤاد حنّا ترزي، وقبل هذا التاريخ كان قد توفي أبو الأسود، إذ أنّه توفي سنة ٦٨٨، وهو أول من وضع النحو العربي.

إذاً فقد توفي أبو الأسود قبل وفاة الرهاوي بعشرين سنة، فهو أسبق زمنياً منه، وأبو الأسود عاش ٨٥ سنة كما ذكرناه في ترجمته، كما أنّه لم يضع النحو في أواخر عمره، بل وضعه في زمان خلافة الإمام ـعليه السلامـ، فهو قد توفي سنة ٦٩ هـ، وسوف نرى أنّه قد وضع النحو في حدود سنة ٣٦ هـ، فيكون قد وضع النحو قبل وفاته بـ ٣٣ سنة، مضافة إلى ٢٠ سنة، فيكون قد وضع النحو قبل وفاة الرهاوي بـ ٥٣ سنة، فهل يمكن اكتساب النحو من السريانيّين قبل وضع نحوهم وقبل تدوينه.

إذاً فلماذا لا نفرض العكس ونقول: إنّ السريان قد اكتسبوا نحوهم من العرب ـكما ذهب البعض إلى ذلكـ وكما يذكر ذلك صاحب «اللمعة الشهية»[٨٩]؟! ولماذا الإصرار على ضرورة الاكتساب؟! ولماذا لا نقول إنّه ليس

---

(٨٧) العبقريات الإسلامية: ٩٧٠.

(٨٨) مدرسة البصرة النحوية: ٩٨.

(٨٩) مدرسة البصرة النحوية: ٩٩.

هناك اكتساب، بل كل لغة ابتكرت نحوها بعد تجمّع العوامل المحفّزة على ذلك ؟!

وأنا لا أريد أن أُؤيّد نظرية الأصالة وعدم الاكتساب بصورة مطلقة وشاملة، بل أُريد أن أقول: إنّه لا يمكن اكتساب النحو العربي من النحو السرياني، للأسباب التي ذكرناها.

إذاً ـ وكما قلنا سابقاً ـ فإنّ فكرة اكتساب النحو في بدايته (فرضية) لا تثبتها أدلّة وروايات تاريخية على العكس من (أصالته) التي تثبتها ـ بالإضافة إلى الأدلّة التي يذكرها المعاصرون والقدامى ـ روايات ونصوص تاريخية تؤكّد هذا الرأي، وأنّ الإمام ـ عليه السلام ـ أو أبا الأسود قد وضع النحو العربي.

ولكن على أيّ احتمال فلا يتأخّر تاريخ بداية النحو عن تلك المرحلة الزمنية التي عاشها الإمام ـ عليه السلام ـ وأبو الأسود.

مع الاعتراض الثالث

ونناقش فيه الرأي الذي يذهب إلى «أنّ أقدم من نُسبت إليه آراء نحوية هو عبدالله بن إسحاق، ولا يجد رأياً لأبي الأسود، ولا لطبقتين بعده في كتاب سيبويه أو ما بعده»[٩٠] كما مرّ ذكره.

ومناقشتنا ـ كما هو منهجنا ـ على خطوات:

١ـ تأخّر التدوين:

فقد تأخّر التدوين والكتابة في شتّى المجالات الثقافية ـ إلّا في المصحف الشريف ـ وليس في مجال النحو فحسب، بحيث كانت المسائل تحفظ في الذاكرة دون محاولة تدوينها وكتابتها ـ كما تذكر ذلك المصادر التاريخية ـ ومن هنا نفسّر اختلاف الروايات في شكلها ومتنها ـ حتى بالنسبة للحديث الواحد ـ، وهذا الأمر

---

(٩٠) إبراهيم مصطفى، في مقالة له في مجلّة الآداب، نقلاً عن مدرسة البصرة النحوية: ٥٣.

نلاحظه حتى في الأحاديث النبوية الشريفة، فكيف في الروايات التي لا تملك تلك القداسة والحافز الديني التي يملكها الحديث النبوي كهذه الروايات ـ كما سيأتي البحث في هذا الأمر ـ، فلم تسجّل أو تدوّن آراء أبي الأسود، أو آراء الطبقة الثانية التي من بعده، لعدم شيوع التدوين آنذاك ، وللاعتماد على الذاكرة والحفظ في الصدور فحسب، والتي تكون عادة عرضة للنسيان والإهمال.

٢ـ بدائية آراء أبي الأسود:

وإضافة إلى تأخّر التدوين «فإنّ مسائل النحو ليست مسائل ثابتة ولا تتغيّر، وإنّما هي مسائل يأخذها الخلف عن السلف، يزيدون عليها ويفرّعون فيها بحسب الضرورة الداعية والتلاميذ المتعلّمين، وأظنّنا نشاهد ذلك بعد أن استقرّت مسائل النحو وثبتت قواعده، ونشاهد تيسيراً وتعديلاً لا يختلف حقيقة مع الأصل، ولكنّه يتّفق مع العقلية ومع الحاجة الداعية»[٩١].

فعدم ذكر رأي لأبي الأسود في كتاب سيبويه ليس لأجل عدم وجود رأي نحوي له، بل لبعد الزمن وعدم تسجيل آرائه كتابةً، بينما ذكرت آراء عبدالله بن أبي إسحاق ـ مثلاً ـ لأنّ الخليل كان قد تلقّاها منه مباشرة ونقلها إلى تلميذه سيبويه، وكذلك لتطوّر الآراء النحوية بحيث لا تتلاءم بعقليّتها ومنهجيّتها وطبيعتها البدائية العامة مع كتابتها وعرضها في كتاب سيبويه ـ أو في غيره من الكتب النحوية ـ بعد أن طوّرها ووسّعها تلامذة أبي الأسود ومَن بعدهم وفرّعوا فيها واعتمد على مناهج وأساليب وآراء تتلاءم وروح عصرها ووعيه بحيث وصلت لسيبويه بالصورة الثانية المتطوّرة وليست بالشكل الذي وضعه أبو الأسود.

وحتى آراء عبدالله بن أبي إسحاق النحوية ـ الذي يصفه النحاة والمؤرّخون «بأنّه أول من بعج النحو ومدّ القياس والعلل»[٩٢] ـ لم تذكر ولم يألفها النحاة

---

(٩١) مدرسة البصرة النحوية، الدكتور عبدالرحمن السيّد: ٥٧.

(٩٢) مراتب النحويّين: ١٢.

بعد ذلك «يقول محمد بن سلام: سمعت رجلاً يسأل يونس عن ابن أبي إسحاق وعلمه، قال: هو والنحو سواء، أي هو الغاية فيه، قال: فأين علمه من علم الناس اليوم؟ قال: لوكان في الناس اليوم من لا يعلم إلّا علمه لضحك به ولو كان فيهم أحد له ذهنه ونفاذه، ونظر نظره كان أعلم الناس»[٩٣] فإذا كان شأن آراء ابن أبي إسحاق كما ذكر فكيف يكون الحال في آراء أبي الأسود وهو متقدّم زمنياً عليه؟!

٣ـ الرواة المعاصرون لأبي الأسود:

ولكن كل ذلك ليس بشيء أمام ذلك الحشد الكبير من الروايات المثبتة لهذه النسبة «وبعض الروايات لمؤرّخين كانوا قريبي العهد إلى عصر وضع النحو»[٩٤] كما مرّ ذكرهم، إضافة إلى ما ذكره النحاة في كتبهم وسيبويه نفسه «من ذكر اصطلاحات نحوية وقواعد عرفت بالنقل عن البادئين الأولين، والناقلون هم من أوثق الثقات كالخليل بن أحمد وابن العلاء، فقد درس هؤلاء على رجال الطبقة الثانية»[٩٥] فإذا لم يكن البادئون الأولون أبا الأسود وتلاميذه، إذن فمن يكونون؟! مع العلم أنّه لم تفصل ـ كما يدلّ الرأي السابق ـ بين طبقة الخليل وابن العلاء وبين طبقة أبي الأسود فترة زمنية واسعة، هذا كلّه بالإضافة للشواهد التي ذكرناها سابقاً التي تدلّ على وجود كتاب لأبي الأسود في النحو وتعرّض بعض الكتب النحوية لآرائه ووضعه أمثال تقسيم الكلمة.

٤ـ سيبويه وأبي الاسود:

وبعد ذلك كلّه يقول كمال إبراهيم: «وهذا كتاب سيبويه ـ وهو بين

---

(٩٣) أخبار النحويّين البصريّين: ٢٠.

(٩٤) كمال إبراهيم، واضع النحو الأول، مجلّة البلاغ، العدد ٩ ص٢٧.

(٩٥) كمال إبراهيم، واضع النحو الأول، مجلّة البلاغ، العدد ٩ ص ٢٧ .

أيدينا- وسند الرواية فيه، فإنّه يروي عن السابقين، فإذا روى عن بعضهم فقد يصل بالسند إلى أبي الأسود وينتهي عنده، وهذا يدلّ على أنّه كان الواضع الأول»[٩٦]، إذاً فسيبويه أشار إلى أبي الأسود في كتابه إمّا بالإيماء كتعبير السابقين والبادئين والأولين حيث يشعر هذا التعبير بقدمهم زمنياً لا أنّهم مقاربون لعصره، أو أشار إليه بالتصريح كما ذكره كمال إبراهيم.

مع الاعتراض الرابع

ونناقش فيه مشكلة اختلاف الروايات، في سبب الوضع، وفي الشكل اللفظي للروايات، وفي الواضع.

١- الاختلاف في سبب الوضع:

عرفنا سابقاً مدى شيوع اللحن، ومدى خطورته الدينية واللغوية، وكان الإمام -عليه السلام- قد اطّلع على بعض مضاعفات ومظاهر هذا الوباء على الألسنة، كما أنّ أبا الاسود كان يلمس بين آونة وأُخرى مدى انتشار اللحن بين المسلمين نظراً لثقافته اللغوية وإحساسه باللحن وتفكيره الدائم في هذا المجال، وكان يرى أمثالاً وشواهد كثيرة للّحن بين الناس، وكان ينقل بعض هذه الشواهد والمؤشّرات للإمام -عليه السلام- كما درسنا ذلك.

إذاً فالسبب الذي دعا إلى وضع النحو هو (انتشار اللحن)، ولا يمكن أن يكون اللحن منتشراً إلّا إذا كانت هناك مؤشّرات وشواهد عديدة تعبّر عن هذا الانتشار، أمّا إذا كان هناك شاهد واحد للّحن -أو شاهدان- فلا تدفع مثل هذه الضئالة الإمام -عليه السلام- أو أبا الأسود لوضع النحو، لأنّه حينئذ لا يشكّل حافزاً قويّاً فاعلاً لوضعه، فإذا أدركنا ذلك عرفنا لماذا تعدّدت الأسباب لوضع النحو.

يقول عبد الرحمن السيّد: «.. لأنّه إذا كان السبب في التفكير في هذا

---

(٩٦) كمال إبراهيم، واضع النحو الأول، مجلّة البلاغ، العدد ٩ ص٢٧.

العلم خطأ واحد فقد نتساءل: لقد سبق هذا الخطأ بأخطاء أُخرى نبّه إليها، وعيب بها قائلوها، فلِمَ لم يدفع واحد منها إلى وضع هذا العلم؟! ولِمَ أُهملت كلّها؟! أو اكتفي فيها كلّها بمجرّد التصويب والتصحيح، والحقّ أنّ النفس تميل إلى تعدّد الأسباب والأخطاء، وأنّ هذا التعدّد في الخطأ والتنوّع فيه هو الذي حفّز الهمّة وقوّى الرغبة في محاولة التخلّص منه»[٩٧] فكانت هناك أخطاء نحوية قليلة صدرت قبل هذه الفترة، ولكنّها لم تحفّز على التفكير في وضع النحو، وذلك لقلّتها وضالّتها، وإنّما بدأ التفكير حينما اتّسعت ظاهرة اللحن -للعوامل التي ذكرناها سابقاً، والتي كانت تشجّع على هذا الانتشار والاتّساع- وخوفاً من تزايد هذه الظاهرة في المستقبل بحيث يصعب علاجها.

٢- الاختلاف في متون النصوص:

كما نرى ذلك في بعض الروايات الواردة في هذا المجال، ولكنّنا نلاحظ أنّ هذا الاختلاف لا يقتصر عليها فحسب، بل نراه أيضاً حتى في الأحاديث النبوية الشريفة مع وجود حوافز أقوى وأكثر لحفظها وعدم إهمالها ونسيانها، كلّ ذلك لأجل عدم وجود التدوين وتأخّر الكتابة، والاعتماد على الذاكرة في حفظها، والنقل بالمعنى للأحاديث لا نقل اللفظ وهذه الحالة تفرض هذا الاختلاف في المتن والشكل -ولو بصورة جزئية- لا تؤدّي إلى الاختلاف الكبير في المعنى والمضمون.

٣- الاختلاف في الواضع:

فإنّ بعض الروايات -كما رأينا- تدلّ على أنّ أبا الأسود هو الذي وضع النحو، بينما البعض الآخر منها تدلّ على وضعه النحو بتوجيه من الإمام -عليه السلام- بعد أن وضع له بعض القواعد الأساسية ليسير على ضوئها، إذاً

---

(٩٧) مدرسة البصرة النحوية: ٥٠.

فكيف نجمع بين هذه الروايات المختلفة؟

١- ولكن -وكما لاحظنا في فصل سابق- فإنّ الروايات والأدلّة لم تجمع على أبي الأسود فحسب، بل إنّ أكثر الروايات، بل ما يقارب الإجماع تنسب وضع النحو للإمام -عليه السلام-، وأنّه تلا بعض القواعد الرئيسية على أبي الأسود وأشار عليه أن يواصل البحث من خلالها، فوسّع فيها أبو الأسود وأضاف إليها قواعد وآراء أُخرى اكتشفها من خلال بحوثه وتجاربه في هذا المجال، أو كما يقول عبدالرحمن السيّد: «وهذه الروايات تكاد تجمع أيضاً على أنّ أبا الأسود وضع النحو بإرشاد علي -رضي الله عنه- وبعضها يروي ذلك على لسان أبي الأسود نفسه، وقلّة منها تجعل أبا الأسود هو مبتكر هذا العلم ومبدعه دون أن يطلب إليه ذلك أحد أو يوجّهه فيه موجّه»[٩٨].

فإذا اعترف أبو الأسود نفسه بأخذه النحو من الإمام -عليه السلام- واعترف بهذه النسبة نفس القائلين بوضع أبي الأسود للنحو وهي أكثر بكثير من الروايات التي تنسب وضع النحو لأبي الأسود بصورة مستقلّة، بل ربّما قام الإجماع على ذلك. هذه المرجّحات وغيرها ترجّح الرأي والروايات التي تدلّ على دور الإمام -عليه السلام- في وضع النحو، بينما الروايات التي تعتبر أبا الأسود مستقلّاً في وضع النحو لا تملك مثل هذه المرجّحات التي تملكها تلك الروايات التي تدلّ على دور الإمام -عليه السلام- في وضع النحو.

٢- إنّنا لو تتبّعنا «نهج البلاغة» وأحاديث الإمام -عليه السلام- في مختلف المجالات، ومن خلال سيرته الفكرية والحياتية -بغضّ النظر عن مقدرة الإمام المعصوم كما يؤمن بها الشيعة- لرأينا أنّ الإمام أوسع من أبي الأسود ثقافة واطّلاعاً على لغة العرب، وأكثر تركيزاً ووعياً في شتّى القضايا وأكثر فهماً واهتماماً لاحتياجات المسلمين، وبالحفاظ على القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، فعندما ننسب النحو لأبي الأسود فمن طريق أوْلى نسبته للإمام -عليه السلام- على أساس

---

(٩٨) مدرسة البصرة النحوية: ٤٩.

الخصائص التي يتميّز بها الإمام -عليه السلام- فهو يملك أكثر المؤهّلات التي تؤهّله لوضع النحو، وليس هناك مانع يمنعه عن ذلك والروايات الكثيرة وإجماع المؤرّخين كلّها تدلّ على وقوع هذه الحقيقة أيضاً.

إذاً فلا يمكن لنا أن ننكر دور الإمام -عليه السلام- في وضع النحو، كما لا يمكن أن ننكر دور أبي الأسود ومشاركته في ذلك، فالرأي الصائب أن نقول: إنّ الإمام -عليه السلام- وضع بعض القواعد الرئيسية في النحو، وفتح عيون أبي الأسود على هذا العلم، ووجّهه إلى الطريق وأكّد عليه مواصلة البحث فيه، فأضاف أبو الأسود -على ضوء ذلك- أبواباً وقواعد أُخرى للنحو، ووسّع وطوّر ما وضعه الإمام -عليه السلام-.

وعلى هذا الأساس فإنّ عملية الوضع قد شارك فيها الإمام -عليه السلام- وأبو الأسود، وكان لكل منهما دوره الفاعل الخلاّق في هذا المجال، وبذلك يمكن الجمع والتوفيق بين هذه الروايات المتعارضة صورياً، فلا حاجة إلى طرح بعضها والالتزام بالبعض الآخر ما دام الجمع ممكناً اتّباعاً للقواعد والمقاييس المتّبعة في مجال الروايات المتعارضة، حيث أنّ (الجمع مهما أمكن أوْلى من الطرح)، فذكر الإمام بعض القواعد العامة، وواصل أبو الأسود المسير في تفريعاتها وتطويرها وإضافة أبواب لها بتوجيه من الإمام -عليه السلام- وتأكيد منه على ذلك، لأنّه تلميذه المتميّز بالخبرة اللغوية، والذهنية الوقّادة، كما ذكرنا عن خصائصه فيما سبق.

ولكن هناك من ينكر نسبة النحو للإمام -عليه السلام- على اعتبار أنّ الأخبار والروايات التي تثبت نسبة النحو للإمام -عليه السلام- هي من وضع الشيعة الّذين يحاولون نسبة كل علم لأئمّتهم -عليهم السلام- أو أصحابهم، وأتباعهم، فهي موضوعة لسبب مذهبي.

فيقول أحمد أمين: «وأخشى أن يكون ذلك من وضع بعض الشيعة

الّذين أرادوا أن ينسبوا كل شيء إلى علي وأتباعه»[٩٩].

ويقول سعيد الأفغاني: «وفي النفس شيء من نسبة الأولية في وضع النحو وسائر العلوم لعلي بن أبي طالب»[١٠٠].

وهناك غيرهما من ينكر هذه النسبة لهذا السبب المذهبي.

ونناقش هذا الرأي:

١ـ إنّنا لو نسبنا تهمة الوضع للروايات التي تنسب وضع النحو للإمام ـعليه السلامـ لأمكن لنا أن ننسب نفس التهمة للروايات التي تسنده لأبي الأسود، إذ كان أبو الأسود ـباعتراف الجميعـ من أقطاب الشيعة وكبارهم، إذاً فلنتّهم هذه الروايات بالوضع أيضاً، بالإضافة إلى أنّ أبا الأسود أدنى درجة من الإمام ـعليه السلامـ علمياً وفكرياً وأدبياً ولغوياً ـوهما من عصر واحدـ فتكون التهمة بالنسبة إليه أشدّ منها بالنسبة للإمام ـعليه السلامـ لما يملكه الإمام ـعليه السلامـ من المؤهّلات التي تفوق مؤهّلات أبي الأسود في هذا المجال.

٢ـ إنّ الروايات التي تنسب وضع النحو للإمام ـعليه السلامـ أكثر رواتها ورجالها من غير الشيعة، وأكثر المصادر التي ذكرتها غير شيعية، بل أكثر من قال بنسبة النحو للإمام ـعليه السلامـ والتزم بهذا الرأي من غير الشيعة، فلو كان فيها أقلّ ريب أو شبهة لحاول الكثير الطعن فيها أو أغفلها، مع محاولة الكثير التكتّم أو الطعن في الروايات الشيعية، فلا بُدّ أن تكون هذه الفضيلة والنسبة قد بلغت حدّاً كبيراً من الشيوع والانتشار والواقعية بحيث لا يمكن للكثير إغفالها أو الطعن فيها، وليس لهم إلّا التسليم للأمر الواقع، فذكرهم للروايات والآراء في كتبهم دليل على عدم وجود مغمز فيها، ودليل على وصولها إلى الحدّ الذي لا يقبل الطعن والزيف والوضع، يقول محمد الطنطاوي بعد ذكر موجة العداء للشيعة: «فكيف يدّعون

---

(٩٩) ضحى الإسلام ٢/٢٨٥.

(١٠٠) من تاريخ النحو: ١١.

أمراً خطيراً كهذا يمضي على كرّ الزمان، ويخلد في بطون الأسفار، وهم أحرّ الناس على الغضّ من شأن العلويّين وشيعتهم، ولا سيما في مثل هذا الشأن ذي البال والأثر الخالد»[١٠١] ومراده من الأمر هو نسبة وضع النحو للإمام -عليه السلام- ولأبي الأسود.

٣- إنّ الشيعة يدّعون أنّ أكثر العلوم منسوبة لأئمّة أهل البيت -عليهم السلام- وأتباعهم، والحقائق التاريخية تثبت ذلك ولا يدّعون ذلك جزافاً بدون أدلّة مقنعة وقوية، إذ تدلّ الروايات الصحيحة والحقائق التاريخية التي يذعن بها حتى خصومهم على نسبة أكثر العلوم إليهم[١٠٢] فلا يوجد هناك مبرّر لاستثناء النحو منها، وهناك عوامل كثيرة أدّت إلى نشأة أكثر العلوم على أيدي الشيعة ليس هنا مجال ذكرها، ومنها أنّ الشيعة تفرّغوا أكثر للأعمال الفكرية والثقافية وبذل جهودهم في مثل هذه المجالات.

٤- وبالإضافة لذلك كلّه، ما ذكرناه في موضوع «الاختلاف في الوضع» من كثرة الروايات والآراء، ومن دلالة «نهج البلاغة» وغيرها على ذلك، فمن الروايات ما ذكره الحافظ ابن كثير في ذيل تفسيره «فضائل القرآن» ص ١٥ -طبع في ذيل المجلّد الرابع-: «قد توجد مصاحف على الوضع العثماني يقال إنّها بخطّ علي -رضي الله عنه- وفي ذلك نظر، قال في بعضها (كتبه علي بن أبي طالب) وهذا لحن من الكلام، وعلي -رضي الله عنه- من أبعد الناس عن ذلك فإنّه كما هو المشهور عنه هو أول من وضع علم النحو -فيما رواه عنه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي- وأنّه قسّم الكلام إلى: اسم وفعل وحرف، وذكر أشياء أُخر تمّمها أبو الأسود بعده، ثمّ أخذ الناس عن أبي الأسود فوسّعوه فصار علماً مستقلّاً» وهو يؤكّد ما ذكرناه من الجمع بين الروايات المختلفة في هذا المجال، وعن بدائية النحو الذي وضع.

---

(١٠١) نشأة النحو: ٢٣.

(١٠٢) لاحظ كتاب «تأسيس الشيعة لفنون الإسلام» ففيه الكثير من الأدلّة على هذه الحقيقة.

وقال ابن جنّي في الخصائص ٨/٢ ـ الطبعة الحديثة، تحقيق محمد علي النجّار ـ: «وروي من حديث علي ـ رضي الله عنه ـ مع الأعرابي الذي أقرأه المقرئ (إنّ الله بريء من المشركين ورسوله) حتى قال الأعرابي: برئت من رسول الله!! فأنكر ذلك علي ـ عليه السلام ـ ورسم لأبي الأسود من عمل النحو ما رسمه ما لا يجهل موضعه...».

وغيرها من الروايات التي ذكرنا بعضها في هذه الدراسة، وهناك كثير لم نذكره ـ تُراجع في الكتب ـ كلّها تؤكّد على دور الإمام ـ عليه السلام ـ في وضع النحو.

زمن الوضع ومكانه:

يبقى هنا زمن اكتساب أبي الأسود النحو من الإمام ـ عليه السلام ـ ومكانه.

هناك روايات عديدة تصرّح بأنّ أبا الأسود كان قد أخذ النحو حين اكتسبه من الإمام ـ عليه السلام ـ بالإضافة إلى أنّ «الكثير من المؤرّخين يشير إلى أنّه حين أخذ العلم من الإمام علي أو وضعه من نفسه لم يخرجه إلى أحد»[١٠٣].

ومن ذلك ما قاله أبو عبيدة معمر بن المثنى: «أخذ أبو الأسود عن علي ابن أبي طالب ـ عليه السلام ـ العربية فكان لا يُخرج شيئاً ما أخذه عن علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ إلى أحد حتى بعث إليه زياد: اعمل شيئاً تكون فيه إماماً ينتفع الناس به»[١٠٤].

ونحن لا نستبعد هذا الرأي لأنّنا نعلم أنّ أبا الأسود اكتسب النحو من الإمام ـ عليه السلام ـ حين جاء الإمام ـ عليه السلام ـ إلى العراق ـ كما ذكرت ذلك بعض الروايات التي ذكرنا قسماً منها في فصول هذه الدراسة ـ ولا يمكن أن يكون مثل هذا الاكتساب قد حصل حين كانا في المدينة، إذ اتّصلت بوضع النحو بعض

---

(١٠٣) مجلّة الأقلام، السنة الرابعة، العدد ٦ ص ١٠٤.

(١٠٤) أخبار النحويّين البصريّين: ١٢.

الحوادث، كشيوع اللحن مثلاً الذي كان منتشراً في العراق بعد انتشار الأجانب فيه وتوسّع البلاد الإسلامية واختلاطهم بالشعوب والثقافات الأُخرى، بالإضافة إلى أنّه ليس هناك من مبرّر وسبب يفرض التكتّم على النحو وإخفائه خلال هذه المدّة من حين اكتسابه من الإمام -عليه السلام- حين كان في المدينة يتعلّم ويدرس الثقافة الإسلامية على يد الإمام -عليه السلام- إلى حين ولاية زياد في أيام معاوية.

فالرأي الراجح هو أنّ أبا الأسود اكتسب القواعد الأساسية للنحو من الإمام -عليه السلام- حين مجيئه إلى العراق، وبعد أن لمس انتشار اللحن وأدرك أخطاره الكبيرة -في المجال الديني خاصة-، ولكنّ هناك عوامل كثيرة أدّت إلى إخفائه -سنذكر بعضها في موضوع التنقيط- ولعلّ منها ظروف تلك المرحلة المثيرة الصاخبة التي أدّت إلى عدم الإعلان عنه إلى أن تهدأ الأجواء، لأنّ أبا الأسود كان مشاركاً أيضاً في شتّى المهام والنشاطات العسكرية والسياسية والاجتماعية في تلك المرحلة -كما ذكرنا ذلك في ترجمته- ولكن بعد شهادة الإمام -عليه السلام- في محراب مسجد الكوفة، وحين هدأ الجوّ لأبي الأسود ولم تعد الحوادث والمناصب تستغرق أوقاته حينذاك -كما ذكرنا في ترجمته- تفرّغ إلى البحث والدراسة وأظهر ما اكتسبه من الإمام -عليه السلام- بعد إلحاح الحاجة والضرورة على ذلك، ولم يكتف بما اكتسبه من الإمام -عليه السلام- بل حاول التوسّع فيه جهد طاقته وبما يملكه من فكر وثقافة.

وحين كان يجلس في مسجد البصرة ويتردّد عليه بعض طلّاب الثقافة أو حين كان يجتمع مع الناس في كل مكان كان يعرّفهم حينذاك على هذه الفكرة الجديدة وعلى كيفية ولادتها.

مع الاعتراض الخامس

ونناقش فيه الرأي الذي يذهب إليه المعارضون بأنّ المراد من العربية أو

النحو -في الروايات- هو تحريك المصحف الشريف بتنقيطه وليس النحو بمعناه المصطلح.

وقبل أن ندخل في مناقشتنا لهذا الرأي يجدر بنا أن نبحث حول عملية تحريك المصحف الشريف بالتنقيط والتي قام بها أبو الأسود بإجماع القدماء.

فتذكر -في الكتب والمصادر القديمة والحديثة- الطريقة التي ابتكرها أبو الأسود في تحريك المصحف الشريف وهي في واقعها الأساس للحركات الإعرابية التي تعتمد على المعرفة النحوية واللغوية وتدلّ أيضاً على قوّة الإبداع والابتكار التي يملكها أبو الأسود وهو يؤكّد أكثر إبداعه لعلم النحو، فيقول أبو العبّاس المبرّد عن أبي الأسود: « أول من نقّط المصاحف»[١٠٥]، ويقول السيرافي: «كان أبو الأسود لا يُخرج شيئاً ممّا أخذه عن علي بن أبي طالب - عليه السلام - إلى أحد حتى بعث إليه زياد وقال له : اعمل شيئاً لتكون فيه إماماً ينتفع به الناس وتعرب به كتاب الله، غير أنّ أبا الأسود رفض حتى سمع قارئاً يقرأ: (إنّ اللهبريء من المشركين ورسوله) فقال: ما ظننت أنّ أمر الناس يصل إلى هذا، فرجع إلى زياد فقال: أنا أفعل ما أمر به الأمير فليبغني كاتباً لقناً يفعل ما أقول، فأُتي بكاتب من عبدالقيس فلم يرضه، فأُتي بآخر، وقال أبوالعبّاس: أحسبه منهم، فقال له أبو الأسود: إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف ، فإن أتبعت شيئاً من ذلك غُنّة فاجعل مكان النقطة نقطتين ، فهذه نقط أبي الأسود »[١٠٦] ولعلّ مراده من النقطتين هو التنوين وأنّ التنوين علامته نقطتان. ويمكن أن يكون مراد السيرافي من (الشيء) في قوله: «كان أبو الأسود لا يخرج شيئاً ممّا أخذه عن علي بن أبي طالب -عليه السلام-» هو تنقيط المصحف، ويمكن أن يكون النحو.

«ومن كتاب المطالع السعيدة لجلال الدين السيوطي قال: وأخرج ابن

---

(١٠٥) الإصابة - للحافظ ابن حجر- ٣٤١/٢، والمقنع في رسم مصاحف الأمصار -للداني-: ١٣٢، وطبقات النحويّين: ٥.

(١٠٦) بغية الوعاة -للسيوطي-: ٣٧٤، الأغاني ٢٦٩/١٢.

الأنباري من طريق العتبي، قال: كتب معاوية إلى زياد، ويطلب عبيد الله، فلمّا قدم عليه كلّمه، فوجده يلحن، فردّه إلى أبيه، وكتب إليه كتاباً يلومه فيه، ويقول: أمثل عبيدالله يضيّع؟! فبعث زياد إلى أبي الأسود، فقال: يا أبا الأسود، إنّ هذه الحمراء ـ وأراد بهم العجم لغلبة الحمرة على ألوانهم ـ قد أفسدت ألسن العرب، فلو وضعت شيئاً يصلح به الناس كلامهم ويعرب به كتاب الله، فأبىٰ ذلك أبو الأسود، فوجّه زياد رجلاً، فقال له: اقعد في طريق أبي الأسود فإذا مرّ بك فاقرأ شيئاً من القرآن وتعمّد اللحن فيه، ففعل ذلك، فلمّا مرّ به أبو الأسود رفع صوته يقرأ (إنّ الله بريء من المشركين ورسوله) فاستعظم ذلك أبو الأسود فقال: عزّ وجه الله أن يتبرّأ من رسوله، ثمّ رجع من فوره إلى زياد، فقال: قد جئتك إلى ما سألت، ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن، فابعث إلى ثلاثين رجلاً، فأحضرهم زياد، فاختار أبو الأسود عشرة، ثمّ لم يزل يختارهم حتى اختار منهم رجلاً من عبدالقيس، فقال: خذ المصحف وصبغاً يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفتيَّ فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتهما فاجعل النقطة إلى جانب الحروف، فإذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفل الحرف، فإن اتبعت شيئاً من هذه الحركات غنّة فانقط نقطتين، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره، ثمّ وضع المختصر المنسوب إليه بعد ذلك»[١٠٧].

وهناك روايات وآراء أُخرى تؤكّد نسبة التنقيط لأبي الأسود، وإن كان هناك بعض الاختلاف الضئيل في متون هذه الروايات، ولكن لو تأمّلنا فيها لرأينا عدم تعارضها واختلافها، إذ يمكن الجمع بينها.

والملاحظ أنّ هذا العمل من أبي الاسود قد تمّ في زمان زياد ومعاوية ـ كما تؤكّده الروايات ـ وأنّ أبا الأسود كان عالماً به قبل هذا الزمان، وربّما كان بتعليم وتوجيه من الإمام ـ عليه السلام ـ كما تحتمله عبارة السيرافي ـ وكما سنذكره بعد ذلك ـ ولكن بالرغم من علمه بذلك في زمان سابق فإنّ أبا الأسود كان

---

(١٠٧) نزهة الألبّاء: ٩، وروضات الجنّات ٤/١٦٧.

يخفيه وكان به ضنيناً، ويمكن أن نحتمل أسباباً كثيرة أدّت إلى إخفائه وإلى تأخير إظهاره إلى زمان زياد ومعاوية، يمكن أن نحتمل منها الأسباب التالية:

فربّما كان السبب في التأخير الظروف السياسية والاجتماعية والحربية الصاخبة آنذاك في الفترة التي عاشها أميرالمؤمنين ـعليه السلامـ حيث لم تسمح له بنشر هذا العمل.

وربّما كان السبب هو المنع الذي كان مفروضاً على التدوين والكتابة عامة وخاصة بما يرتبط بالشريعة الإسلامية، وبالأخصّ على أصحاب أميرالمؤمنين ـعليه السلامـ ومواليه وشيعته، خوفاً من كتابة ونشر بعض الكتابات التي ترفع من شأن أهل البيت ـعليهم السلامـ وتحطّ من أعدائهم ومخالفيهم، فالشيعة كانوا مطاردين في تصرّفاتهم وأقوالهم وكتاباتهم، لذلك لم تسمح السلطة بأمثال هذه الأعمال منهم، فربّما لو كان أبو الأسود يبدأ بهذا العمل من نفسه لم يكن له مثل هذا الانتشار والتأثير، وربّما حاربته السلطة الحاكمة، ولكنّه كان ينتظر الفرصة المناسبة التي يشعر بها المسؤولون والحكّام أنفسهم بخطورة اللحن على الأُمّة وبإلحاح من الظروف والناس ليطلبوا منه أو من غيره القيام بهذا العمل.

وربّما كان حجّة الّذين منعوا من التدوين والكتابة بصورة عامة، وخاصة بما يرتبط بالشريعة الإسلامية، هو الخوف من اختلاطها بالقرآن الكريم، وبذلك لا يحافظ على أصالة القرآن الكريم وسلامته.

إذاً فكيف بمثل هذا العمل الذي يتعرّض بصورة مباشرة للقرآن الكريم ومحاولة تحريكه وتشكيله وإضافة بعض الكتابات فيه، ممّا يكون عامل المنع فيه أقوى، وهذه الحجّة وإن كان وراءها دوافع وأغراض سياسية، ولكن قد تذرّع بها البعض للمنع من التدوين والكتابة.

أو أنّ السبب في ذلك عدم انتشار اللحن في القرآن الكريم وفي كلام العرب، وإنّما أخذ بالانتشار والذيوع بعد اختلاط العرب بغيرهم ممّا أدّى إلى ظهور اللحن باتساع وإلى الشعور أكثر بخطورة المشكلة.

أو أنّ السبب هو احتياط بعض المسلمين وتورّعهم عن إضافة بعض الكتابات في المصحف الشريف، لأنّهم كانوا يشعرون بأنّه يلزم الحفاظ على المصحف الشريف كما نزل على النبي -صلّى الله عليه وآله- دون إضافة، ومن هنا كان تجنّبه تورّعاً عن القيام بمثل هذا العمل، ولكن بعد أن أدرك أنّ الضرورة الإسلامية تحتّم عليه القيام بهذا العمل، قام به خير قيام، وكما قال الدكتور شوقي ضيف: «كان ذلك عملاً خطيراً حقّاً فقد أحاطوا لفظ القرآن الكريم بسياج يمنع اللحن فيه»[١٠٨] ويقول الدكتور مازن المبارك: «ومعنى وضع أبي الأسود لشكل المصحف أنّه وضع الضوابط التي تمنع القارئ من الزلل أو اللحن في القرآن، وهل للنحو غاية أُخرى أبرز من حفظ اللسان من الخطأ؟!»[١٠٩].

وهناك عوامل أُخرى -ربّما لا نعلمها- كانت السبب في تأخير أبي الأسود إظهار هذا العمل، وتشمل بعض هذه الأسباب النحو أيضاً، إذ تأخّر أبو الأسود في الإعلان عنه أيضاً.

أمّا عن وجود هذا المصحف الذي شكّله أبو الأسود، فهل هو موجود أو ضاع كما ضاع الكثير من كتب التراث؟

ذكر السيد محسن الأمين في كتابه «أعيان الشيعة» أنّه رأى في خزانة الكتب الشريفة الرضوية مصحفاً بخطّ الإمام أميرالمؤمنين -عليه السلام- عليه مثل هذا الشكل والتنقيط، وهذا يؤيّد ما ذكرناه بأنّ أبا الأسود قد تلقّى تحريك المصحف بالتنقيط من الإمام أميرالمؤمنين -عليه السلام- كما تلقّى النحو منه إلّا أن نقول بأنّ تحريك هذا المصحف الشريف الذي كتبه الإمام -عليه السلام- بخطّه قد أُضيف إليه من قبل أبي الأسود أو غيره -بعد كتابته- كما يحتمل ذلك السيّد الأمين.

يقول السيّد محسن الأمين عن القرآن المنسوب إلى خطّ أميرالمؤمنين

---

(١٠٨) المدارس النحوية -للدكتور شوقي ضيف- : ١٧.

(١٠٩) النحو العربي -مازن المبارك- : ٣٠.

ـعليه السلام ـ: «جزء من القرآن منسوب إلى خطّه الشريف أيضاً ـأي أميرالمؤمنين عليه السلام ـ من أول سورة هود إلى آخر سورة الكهف، بشكل ما نسمّيه سفينة ويسمّيه الفرس بياضاً، أي أنّ أسفل كراريسه من جهة العرض لا من جهة الطول، وكذلك باقي المصاحف التي رأيناها، رأيناه في خزانة الكتب الشريفة الرضوية في ١٢ ربيع الثاني ١٣٥٣، عند تشرّفنا بزيارة مشهد الرضا ـعليه السلام ـ، مكتوب على الجلد الرقيق الذي لا يفترق كثيراً عن الكاغذ بخطّ كوفي غير منقط، وعليه نقط بالحمرة مدوّرة هي علامات على الشكل،والظاهر تأخّرها عن كتابته، فللكسرة نقطة تحت الحرف، وللفتحة نقطة فوقه، وللضمّة نقطة أمامه، وإذا كان في وسط الكلمة توضع النقطة بجانبه، وللتنوين نقطتان فوقه للمنصوب، وتحته للمخفوض، وأمامه للمرفوع، أمّا الحرف الساكن فليس عليه علامة، وقد كانت المصاحف أولاً غير منقّطة، لا للإعجام ولا للشكل.

وأول من نقّطها للشكل أبو الأسود الدؤلي في إمارة زياد، كان يقول للكاتب: إذا رأيتني فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف، وذكره ابن النديم في الفهرست وزاد ابن الأنباري في نزهة الألبّاء: فإن اتبعت شيئاً من هذه الحركات غنّة فانقط نقطتين، وهذا بعينه تنقيط المصاحف التي رأيناها، وهو يؤيّد أنّها بخطوطهم ـعليهم السلام ـ، وفي آخره سطرين هكذا:

كتبه علي بن
أبي طالب

وجلده مذهّب، موضوع في صندوق مذهّب، كلاهما في غاية الاتقان، مكتوب على جلده: وقف الشاه عباس الصفوي سنة ١٠٠٨، عدد أوراقه ٦٨، سطور كل صفحة ١٥، طوله ٣٤ سانتيماً، عرضه ٢٣ سانتيماً، قطره ٣ سانتيمات، وكتب الشيخ البهائي على ظهره بخطّ يده ما صورته: هذا الجزء من القرآن المجيد الذي هو بشريف خطّ سيّد الأوصياء، وحجّة الله على أهل الأرض

والسماء، نفس الرسول، وزوج البتول، وأبي السبطين، وإمام الثقلين، والمخصوص باختصاص إنّما وليّكم الله، المعزز بإعزاز من كنت مولاه فعليٌّ مولاه...»[١١٠].

ثم يذكر السيّد الأمين أنّه توجد نسخة أُخرى من القرآن الكريم بخطّ منسوب للإمام أميرالمؤمنين -عليه السلام- وهو «كالجزء السابق بجميع مميّزاته سوى أنّ سوره غير سوره، ونقط قليلة خضر من تحت وفوق، وأقلّ منها زرق غير نقط الشكل الحمر لم نتحقّق المراد منها، وفي آخره في سطرين هكذا:

كتبه علي بن
أبي طالب»

وهكذا نرى بأنّ أبا الأسود كان قد تلقّى علومه من الإمام أميرالمؤمنين -عليه السلام-، ولا عجب في ذلك فإنّه من تلامذته وأصحابه الموالين والمخلصين -كما ذكرناه في ترجمته-، ولعلّه كان لديه مصحف بخطّ الإمام -عليه السلام- مشكل بهذا الشكل، وهو الذي أخذه من الإمام -عليه السلام- وهو الذي كان به ضنيناً -كما في قول السيرافي-.

وبعد هذا الذي ذكرناه حول عمل أبي الأسود في تحريك المصحف الشريف بالتنقيط، نعود لمناقشة هذا الاعتراض، ومناقشته تكون على خطوات:

١- فالملاحظ أنّ المعارضين الّذين يعارضون نسبة النحو -بمعناه المصطلح- لأبي الأسود، جميعهم يؤيّدون نسبة التنقيط والتحريك إليه، مع أنّ عملية تحريك المصحف الشريف بالتنقيط -وبالصورة التي ذكرت، والتي رويت عن أبي الأسود نفسه- تعتمد على ملاحظة حركات الإعراب، وهي عملية تحتاج إلى أن يكون صاحبها عالماً ببعض الأفكار والمسائل النحوية، إضافة إلى أنّها عملية لا تقلّ تعقيداً وتركيزاً عن عملية وضع بدايات النحو، فالقادر على التحريك لا تصعب عليه عملية وضع النحو في بداياته، وهذه العملية يفسّرها أبو الاسود كما في الرواية «خذ المصحف، وصبغاً يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفَتَيَّ فانقط واحدة فوق

---

(١١٠) أعيان الشيعة ١/٩٠.

الحروف، وإذا ضممتها فاجعل النقط إلى جانب الحرف، وإذا كسرتها فاجعل النقطة إلى أسفله، وإذا اتبعت شيئاً من هذه الحركات غُنّة فانقط نقطتين»[١١١].

ونحن حينما نتأمّل هذه الرواية جيّداً ـ والتي يؤيّدها حتى المعارضون لفكرة وضعه النحو ـ نرى أنّ هذه العملية التي قام بها أبو الأسود تدلّ على مدى ثقافة أبي الأسود النحوية واللغوية وعلى مدى تركيز ذهنيّته وتطوّرها، ونرى أيضاً أنّ هذه الرواية تشير إلى بعض المصطلحات، كالحركات والكسر والفتح والضمّ، وهي مصطلحات تدلّ على وجود قابلية الإبداع والتركيز ـ ولو بصورة بدائية بسيطة ـ عند بعض رجال ذلك العصر، وعلى تقدير اكتساب هذه العملية ـ عملية التحريك بالتنقيط ـ ومصطلحاتها من السريان آنذاك ـ كما يتبنى هذا الرأي أحمد حسن الزيّات[١١٢] ـ فإنّ ذلك لا يؤخّر مرحلة وضعها عن زمان أبي الأسود وأنّه الواضع لها.

فالمعارضون يقولون: «بأنّ الأمر قد اختلط على الرواة إذ كانوا يقصدون بالنحو ضبط الكلام على سبيل العرب وسمتها في القول، فأبو الأسود نقّط المصحف، وهذا النقط هو النحو المقصود بكلام الرواة»[١١٣].

٢ـ ولكنّ الملاحظ من الروايات «أنّها لم تكتف بأنّ أبا الأسود وضع النحو أو العربية فقط، بل ذكرت أبواباً من النحو نسبت إليه، فكيف نأخذ شقّ الرواية ونترك شقّها الآخر؟! الأوْلى أن تؤخذ جميعاً أو تطرح جميعاً»[١١٤] فمن الأبواب التي ينسب وضعها إلى الإمام ـ عليه السلام ـ وبعضها تنسب لأبي الأسود: باب التعجّب والإضافة والظاهر والمضمر وتقسيم الكلمة.. إلى آخره.

٣ـ إضافة إلى أنّ بعض الروايات تشير إلى أنّ أبا الأسود وضع تشكيل المصحف الشريف بالنقط والنحو أو العربية، فتفصل بينهما، ممّا يدلّ على

---

(١١١) إنباه الرواة: ٥.

(١١٢) تاريخ الأدب العربي: ١٥٤.

(١١٣) نقلاً عن مدرسة البصرة النحوية: ١٥٤.

(١١٤) مدرسة البصرة النحوية: ٥٧.

اختلاف معنييهما وممّا يدلّ على أنّه كان هناك فرق بين مفهومي التنقيط وبين العربية والنحو في أذهان الرواة والمؤرّخين، وابن حجر ينقل رواية تؤكّد مثل هذا الفصل بين مفهومي التنقيط والنحو، فقد نقل: «انّ زياداً أمر أبا الأسود أن ينقّط المصاحف فنقّطها، ورسم من النحو رسوماً»[١١٥] وهناك روايات وآراء أُخرى تؤكّد وتصرّح بهذا المعنى، ويقول أبو العبّاس المبرّد: «أول من وضع العربية ونقّط المصاحف أبو الأسود الدؤلي»[١١٦].

بالإضافة إلى أنّ المفهوم من كلمة النحو أو العربية غير المفهوم من كلمة التنقيط كما هو ظاهر، فكيف يكون المعنى في كليهما واحداً؟!

ويذكر السيد محسن الأمين: «وإعراب القرآن لا دخل له بوضع علم النحو، الذي كان في زمن أميرالمؤمنين -عليه السلام- وبأمره لا بأمر زياد، ويجوز أن يكون أبو الأسود أظهر كتابه يومئذ، وكان ألّفه قبل ذلك، أو رتّب يومئذ ما كان تلقّنه من أميرالمؤمنين -عليه السلام- وأضافه هو إليه فجعله كتاباً»[١١٧].

وأخيراً.. فالملاحظ أنّ هناك علاقة وثيقة بين النحو وإعراب القرآن، فالمتمكّن من إعراب القرآن الكريم والذي يقوم بمهمّة تحريك المصحف الشريف يدلّ على أنّ له علماً ومعرفة بالنحو وتركيزاً في التفكير، ولكن على كل حال فإنّ العمل بوضع النحو غير العمل بتحريك القرآن وتنقيطه كما يؤكّد ذلك المؤرّخون.

الخلاصة:

من خلال ما ذكرناه نستطيع التوصّل للنتيجة التالية: إنّ الإمام -عليه السلام- شعر بضرورة وضع القواعد التي تحفظ اللسان من الخطأ، وخاصة في قراءة القرآن الكريم بعد أن وجد اللحن شائعاً على الألسنة، وبما أنّه خليفة

---

(١١٥) الإصابة -لابن حجر- ٢٤١/٢.

(١١٦) الأغاني.

(١١٧) أعيان الشيعة ١٦٢/١.

المسلمين آنذاك كانت عليه مهمّة الحفاظ على سلامة القرآن الكريم من اللحن، وبما أنّ أبا الأسود كان مرجعاً للخلفاء والولاة في القيام بمثل المهام التي تمسّ اللغة العربية -نتيجة لثرائه في اللغة ولذكائه ومستواه الثقافي- فأعطى الإمام -عليه السلام- مهمّة وضع هذه القواعد لأبي الأسود بعد أن مهّد له الطريق بوضع بعض القواعد الأساسية ليسير على ضوئها ويواصل البحث من خلالها، وقد سار أبو الأسود في هذا الدرب الذي رسمه الإمام -عليه السلام- وواصل البحث فيه بصورة أشمل فاكتشف بعض المسائل والأبواب النحوية التي ترتبط وثيقاً بشيوع اللحن، أي أنّ المجال الذي يشيع فيه اللحن كان يدفع أبا الأسود للبحث والنظر فيه حتى يأخذ فكرة عامة عنه، وبسيطة بدائية لا فكرة مفصّلة متطوّرة كالتي نراها اليوم في الكتب النحوية، ولذلك قلنا: إنّ النحو الذي وضعه أبو الأسود كان بدائياً بسيطاً، ويقتصر على أبواب قليلة دعت إليها الحاجة وضرورة محاربة شيوع اللحن فيها خاصة.

والدليل على هذا الرأي: تواتر الروايات، وتضافر الآراء، وكثير من الرواة قريبو العهد بعصر الإمام -عليه السلام-.

وقد احتمل البعض اكتساب النحو من الحضارات الأجنبية، ولم يتمّ مثل هذا الاتّصال الوثيق بالثقافات الأجنبية إلّا في زمن متأخّر من عصر الإمام -عليه السلام-.

ولا يمكن أن يكون الاكتساب من النحو اليوناني، لأنّ النحو العربي كان موجوداً قبل ترجمة الكتب اليونانية، ولأنّه يختلف في طبيعته عن النحو اليوناني.

وكذلك لا يمكن أن يكون مكتسباً من النحو العبري، لأنّ مرحلة نشأته متأخّرة عن النحو العربي.

إذاً فلا بُدّ أن يكون الاكتساب من النحو السرياني - على القول بأنّه سبق النحو العربي في وضعه- لوجود السريانيّين في المجتمع الإسلامي آنذاك، ونتيجة لاحتكاك المثقّفين من العرب بهم انتقل النحو منها.

ولكنّ هذا الاحتمال لا يؤخّر بداية النحو عن تلك الفترة من عصر الإمام -عليه السلام- إذ أنّ السريانيّين دخلوا الإسلام في خلافة عمر، وهم كانوا مقيمين داخل المجتمع الإسلامي، فيحتمل -مادام الأمر يقوم على الاحتمال والفروض دون الاعتماد على الروايات التي لا تشير إلى هذه الفكرة- أن اطّلع الإمام- مع الغضّ عن فكرة علم الإمام المعصوم -أو اطّلع أبو الأسود على ثقافة السريان وعلى نحوهم فاكتسب منهم بعض قواعدهم وآرائهم النحوية، ولا يمنع مثل هذا الاتّصال والاكتساب أي مانع.

لكنّ هذا الاحتمال الأخير إنّما يعتمد على الفرض والاحتمال دون أن يكون له أيّ سند روائي، وكذلك يعتمد على القول بأنّ النحو العربي مكتسب وليس أصيلاً، وهذه الفكرة الأخيرة ينفيها كثير من المحدّثين من العرب والمستشرقين، بالإضافة إلى أنّ التاريخ لا يشير أبداً إلى فرضية الاكتساب مع اختلاف طبيعة النحو السرياني عن النحو العربي، كما ذكره البعض .

وعلى أيّ احتمال، فإنّ بداية وضع النحو العربي لا تخرج من تلك الفترة -فترة عصر الإمام (عليه السلام) - سواء قلنا بأصالة النحو العربي في بداياته كما هو الرأي الحقّ، ورأي إجماع القدماء وبعض المعاصرين، أو قلنا بأنّه مكتسب من النحو السرياني كما هو رأي البعض الآخر من المعاصرين.

والحمد لله ربّ العالمين.

هاشم الهاشمي